
الإسلام
والأوضاع الاقتصادية

محمد الغزالي

الإسلام
والأوضاع الاقتصادية

نشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمى المنيلاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

« فِي سَبِيلِ اللهِ . . . .

« وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ »

كلمة الناشر

منذ سنوات كنت أزور « أوربا » لا فى رحلة من هذه الرحلات التى يقوم بها كبراؤنا ترفيهاً عن أبدانهم المترفة ، وتبذيراً لأموالهم المكدسة ، بل سعياً وراء مصالح فى فن الطباعة . فإن رجال الغرب لا يزالون أئمة فى ميدان الصناعة يؤخذ عنهم وتقتفى آثارهم . ! وقد لاحظت أن القوم برغم سبقهم العلمى فى نواح كثيرة ، لايدركون عن الإسلام إلا فكرة مشوهة مختلطة بعدد لا يحصى من الخرافات والأباطيل . . .

فلما عدت إلى وطنى تحدثت إلى من أثق بدينهم وعقلهم من رجالات الإسلام عن ضرورة عرض الإسلام عرضاً سليما على هؤلاء المخدوعين ، إنصافاً للحق أولا ورجاء صداقتهم له أو دخولهم فيه إذا شاءوا . . .

وقد رحب هؤلاء الأصدقاء بفكرتى ، بيد أنهم رأوا — لكى يصح العرض وتصدق الدعاية — أن يأخذ الإسلام قبل كل شىء حقه من أتباعه الذين اعتنقوه ثم أضاعوه ونكسوا رايته وطمسوا حقيقته ! !

فإذا قامت للإسلام دولة تحرس الإيمان فى القلوب . وتبث العدالة فى المجتمع ، وتحنو على المريض حتى يصح ، والجائع حتى يطعم ، وتشيع ضياء المعرفة وتغرس مبادئ الفضيلة ، وتدعم جانب الضعيف ، وتتعصب للإسلام تعصب الروس للشيوعية ، وتعصب الأمريكان للرأسمالية . . .

يومئذ فقط نستطيع من أقصر الطرق أن نصحح الأفكار الخاطئة عن الإسلام فننصفه من أعدائه بعد ما ننصفه من أبنائه ! !

ودون خدمة الإسلام فى أوطانه نفسها مصاعب جمة وعوائق هائلة ، مرجعها فساد الأحوال الاقتصادية والسياسية ، واختلال الموازين المادية والمعنوية مما يحتاج إلى عناء عاملى كبير . . .

وقد أقدمت منذ سنوات على نشر هذا الكتاب مساهمة منى فى الإصلاح والله يعلم أن حبى لدينى ورغبتى فى إعزازه هى التى حدت بى إلى هذا النشر . وقد رأيت أن مؤلفه الفاضل قد مضى فى طريقه وأصبح طليعة مدرسة من الكتاب الأحرار تؤيد فكرته وتنتهج طريقته . أرجو الله أن يجنبها الزلل ، وأن يوفقها لخدمة الإسلام وحده .

وذلك ما إليه قصدت .

ثم إن موقف الدولة عندنا من الدين وتعاليمه ينطوى على استخفاف — ولا أقول — على استغفال ظاهر !

فهى تستغل ما يعجبها من تعاليمه ، وتهمل ما لا يروقها ، وتتحمس له فى الأولى وتتحمس . وتصمت فى الأخرى صمت القبور .

حرم الإسلام مثلا المسكرات والمخدرات جميعاً ، فجاءت الدولة فأباحت الأولى ونظمت تجارتها . وامتلأت الصحف بصور شاربيها فى الحفلات الرسمية دون نكير ولا تحذير ، وحرمت الأخرى ؛ وحرست الحدود حتى لا تتسرب منها ، وامتلأت الصحف بصور متعاطيها وهم فى طريقهم إلى المحاكم والسجون . . .

كذلك حرم الإسلام الشيوعية والرأسمالية معاً ، فجاءت الدولة تستعين بالدين يحارب معها خطر الأحمر ، كما تحارب الحشيش والأفيون . على حين

أنها نسقت آثام الرأسمالية ودعمتها وكرمت مظاهرها وبجلت أصحابها مثلما فعلت تماماً بالسكارى والحانات والمواخير . . !

هذا هو المضحك المبكى فى موقف حكومات « إسلامية » كثيرة من الدين وتعاليمه .

والعجب أنها لما حاربت شيوعية الأموال ، غضت الطرف عن الشيوعية فى الأعراض ! وقد بدأت الأمة تشكتوى بنارها ، وانتقل الفساد من أعلى إلى أسفل ، وتعرض مجتمعنا لهزات عنيفة من آثار هذه الحمى التى أصابته ، حمى الشهوات المتاحة لكل طالب ، والأعراض المبذولة لكل شيطان . فإن صح أن الشيوعية الأولى تحارب لوجه الله فلوجه من تبقى الأخيرة ؟

ثم هناك التهم التى تكال جزافاً لكل دعوة تسلك إلى الإصلاح أقصر السبل ، تخاصم أساطين الرجعية هنا وهناك . وتحارب العبودية فى الداخل والخارج حرباً لا هوادة فيها ، ما أسرع اتهام رجالها الأحرار بما هم منه براء !

إننا أخلص فى محاربة الشيوعية من سوانا ، لأننا نقدم « الاشتراكية الإسلامية » دواء عاجلا عادلا لما تشكو منه البلاد من فوضى واضطراب . بل نحن نعلم أن كثيراً من رجالات الشرق الأغبياء يؤلفون — بسوء تصرفهم وشدة جشعهم — خلايا علنية تنشر أخطر المبادئ وتوهى السدود أمام كل غزو !

وقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنَّا عامِلُونَ . وانْتَظِرُوا إنَّا مُنْتَظِرُونَ . . .

محمد حلمى المنياوى

مقدمة الطبعة الثانية

لم تستذل — فى هذا العصر — شعوب كما استذلت شعوب الشرق ، ولم يستغل شىء — فى هضم حقوقها — كما استغل الدين ؟ ! !

لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت ، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالى ؛ كما يصرخ الحارس اليَقِظ ، إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين ! ! .

وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد ، واستغلال منافق ، وأصبح الدِّين مسخراً فى ميادين شتى لتسويغ الْحَيْف ، والتقليل من خطره .

فكان حقاً علينا — كمؤمنين — أن ننصف الدين من الأوزاع التى شانَتْ حقيقته ، وكان لزاماً — كمواطنين — أن ننصف الوطن من الأزمة التى ظلمت أهله ، وأكلت ثروته .

وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح ، أن يعلم الناس علم اليقين . أن الدين فى خدمة الشعوب ، لا فى خدمة فرد أو أفراد ! ! !

ومن ثَمَّ فلا بد من منهج يقوم على عمل مزدوج ، تتمشَّى فيه جنباً إلى جنب حماية حقيقية للدين وصيانة حقوق الناس .

إننا نقدس حق الإنسان فى أن يعيش حرَّ العقل والضمير .. ونقدس حق الطبقات المختلفة فى أن تعيش متكافئة الدماء ، متآخية على السراء والضراء ، متساوية فيما تحمل من واجبات وأعباء .

ونقدس حق المجتمع فى أن يسير إلى الأمام قُدُماً ، وأن يتخلص من الطوائف التى عاقت تقدُّمه ، وعاشت فيه فلم يستفد منها شيئاً بعد ، واستفادت هى منه كل شىء ! ! !

ونريد أن نُصفِّيَ المنابع التى تستقى الأمة منها هذه الأفكار .

والناس لم يألفوا أن يُعرَض الدِّين عليهم بهذا الأسلوب الحر ! بل ألفوا أن يأخذوا أنصبتهم من الحياة الصحيحة ، بعد تجارب طويلة من أحوال الدنيا . وبعد كفاح مرير ، مع الطغاة والجبارين .

وقلَّما استهدى الناس — فى أزَماتهم الأخيرة — بأشعة السماء ، فى تلمُّس الطريق إلى الخلاص مما يُعانون ، بيد أن هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، فإن هداية السماء للأرض لم تفقد بريقها ولا رونقها .

أما العوائق التى حالت دون نفع الناس منها فقد آلينا على أنفسنا أن نسقطها إسقاطاً لا قيام لها بعده .

كانت آيات الدِّين تُكتَب فى ألواح مذهبة ، ثم تُعلَّق على جدران القصور أو كانت تصاغ فى ألحان عَذْبة ، ثم ترسلها الأصوات الحنون .

وكان رجال الدين الصف الأول فى مواكب العظماء الفخمة ، وكانت الأديان مكلَّفة أن تبارك الموائد الحافلة ، وتنْحنى لأصحابها ، وأن تواسى الجماهير الجائعة وتصبرهم على لأْواء الحياة وبأسائها .

حتى ظهر الإسلام فكفر بهذه الأباطيل كلها . ذلك أنها تزوير على الله وكَذِبٌ على دينه ، لأن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها .

وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة ، بل هى زلازل تدُكُّ بنيانهم ، وتغل طغيانها ، وما كان الوحى يوما مَّا ، غناء مطربين ، ولا تراتيل دَجَّالين ، وإنما هو نذير العدل ، يصرخ فى آفاق الحياة باستنكار البغى والعدوان « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ » .

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا فى ركاب العظماء ! فهل هذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا ؟ !

إن رؤساء الأديان المبعوثين من لَدُن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر ، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة ، فلن يعجزوا عن الارتفاع إلى مستوى العبيد .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ » .

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به من ضيم فهذه جريمة .

بل يقول الإسلام للرجل المغصوب منه ماله ، أو المنكوب فى عرضه «من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد» . . .

لا تستسلم أبداً . . . إن الدين فى خدمتك ، يضع السلاح فى يمينك ، ويضع الأمل فى قلبك ، ويضع الإصرار فى إرادتك ، ويكافئك أن تستميت دون حقك .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ ، قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ » .

إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باتباعهم نفر قلائل من [illegible] الناس أو من قادتهم العظماء ، وإنما بعثهم ليستريح البشر كافة

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون دين رحمة للشعوب ، لا [illegible] الشعوب واستغلال بعضها واستذلال أحرارها .

[illegible]

أو . . . من حكامها ، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة ! ! ! .

لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها ، ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها .

أما هنا فى الشرق ، فلن تتكرر المأساة الدامية ! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا ، سنقدم لهم التأمين الاجتماعى مُشْرباً بروح الإيمان الحر أو الإيمان بالله ، مفرغاً فى نظام من الحرية والإخاء والمساواة ؛ ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

وما كان الدين مخدِّراً للشعوب ، كما يقول فيه الساخرون : ولا كان مخدراً للشعوب ، كما يصنع منه المسخِّرون . ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية . . .

خُطَّتنا الفذَّة أبداً هى . . . مع المظلوم حتى ينتصر ، وعلى الظالم حتى ينكسر ، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها ، وتثأر لنفسها من قاهريها . . . !

* * *

يا ضحايا الكَبْتِ والفاقة والحرمان .

لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم ، فضموا أيديكم فى يده .

إن الشفاه التى تأمر بإذلالكم يجب أن تُقَصّ ، والأوضاع التى تغتال حقوقكم أن تُقْصى !

إن الفراع الذى خار أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد ، يجب أن تنزاح غُمَّته إلى الأبد .

ونحن نعلم أن موجات التاريخ الجارفة ، وثورات الحياة العارمة ، لم تحدث عقيب وقوع المظالم المحرجة ، بل بعد الشعور بضُرِّها ، والاكتواء بجرها والغضاضة من بقائها . . .

* * *

لذلك سنوقظ المشاعر المخدَّرة حتى يعاودها الإحساس ، وننهب الأجيال المستقبلة حتى تسير مع مواكب الناس ، ونصرخ فى آذان الساهين الغافلين : « ألا أيها النوام ويحكم هُبُّوا » فقد طال المنام ، وخذوا أنصبتكم من الحياة الكريمة ، فقد ولَّى عهد الظلام ! .

إن الدين والدنيا للعاملين لا للقاعدين . ولن نسمح بعد ليوم أن يباع بالدين فى سوق الشهوات ، ولا أن يتخذ ذريعة لاسترقاق الأحرار وقهر الشعوب .

فإلى الإسلام الصحيح ، حتى نريح ونستريح .

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث مجمل فى موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت فى موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين ، والفهم المستقل لآثاره الثابتة ولم أجنح من هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام ، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب من هذه الأنظمة ، والمذاهب التى تمخض عنها تطور الفكر الإنسانى فى العصر الأخير ، فليس هذا ما يعنينى ، ولست أملك العُدَّة اللازمة لاستقصاء البحث فيه !

وإنما ألفت هذه الرسالة ، ورتبت فصولها المحددة ، لغاية واحدة . هى إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين ، والروح العامة لمبادئه ، والموقف الذى قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة .

وللقارئ بعدئذ أن يقارن ويفاضل ، ويستخلص من النتائج ما يشاء

وحاشاى بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له ، أو أن أحمله من الآراء مالا شأن له به ، فما إلى هذا قصدت .

كل ما يعنيه أن أنصف الدين من سوء الفهم ، وسوء الاستغلال .

فقد أنكرت الشيوعية الدين ، لأنها حسبته مخدِّراً للشعوب ، ومسكِّناً لآلام الطبقات المظلومة ، وستارة لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة

وحقرت الرأسمالية الدين ، إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة ، وتبرير الفوارق الجائرة ، وحقوق المكتسبات الحرة .

والدين مظلوم بين من كفروا به ، ومن جحدوه ! بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المنحرفة !

ولا بد من أن أكشف عن حقائقه ، وأن أبين عن مبادئه ، لأرد عنه سوء الفهم ، وسوء الاستغلال جميعاً .

والسبيل العادلة إلى ذلك، هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها . . .

وقلّما تنصرف النفوس عن الدين، لو عُرِض عليها عرضاً صحيحاً نقياً، فإن أسباب الكفر مفتعلة عند أغلب المتبرمين بالتدين، وأكثر هؤلاء كافر بما لا معنى للإيمان به، مرتاب فيما تجب الريبة فيه.

ولو أتيحت لهم الفرصة، وكشف عن أعينهم الغطاء، ودرسوا الدين كما أنزل من عند الله، لا كما أخذ من الناس لعادوا من أرسخ الناس ديناً وأعمقهم يقيناً!

ذلك أن الدين — مع الأسف الشديد — مصاب منذ أقدم العصور بإضافات زائدة، وأفكار فاسدة، شوهت جوهره، وعكرت حقيقته. ولبست تراث النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة.

وعلينا أن نفصل الحق من الباطل، وأن نميز الخبيث من الطيب، حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى بأسباب الضلال.

فإذا تميز الخير من الشر، وانفصل [illegible] عن [illegible] لم يبق ثمة موضع لسوء فهم، أو سوء استغلال. [illegible] تمسك [illegible] إلا أقوام من المتعصبين والمتزمتين، وفي هؤلاء لا [illegible] لا يلتمس اقتناع.

وقد [illegible] القرآن [illegible] حقيقة — شأن [illegible] لم يضف في حقيقته من بدع وخرافات — [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الذينَ أُوتُو الْعِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى ما إن أخذت تسرى فى مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومختلفات القرون ، وجهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، ونزوات الحكام ، ما ذهب بالكثير من صفائها ، ونقائها ، حتى لتشبه « ماء النيل » فى مجراه الأدنى ، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده « سماويًا » كما كان .

وقد خضع موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية لهذه الصبغة العامة ، والسنة المطَّردة ، فظن الناس فيه الظنون ، وتولدت من ذلك رأسمالية جائرة ، وشيوعية كافرة .

ومن حسن الحظ أن الاضطراب الذى أصاب الناس فى أعمالهم وأحكامهم لم يؤثر تأثيراً خطراً على المقياس الذى نتناول به هذه الأعمال والأحكام بالنقد والتخطئة والتصويب .

فمعرفة الحقيقة لا تزال فى مقدورنا ، ورسم حدود للدين تنفى ما وراءها عن حظيرته المقدسة ، أمر سهل .

وقد كافح كثير من أئمة الفقه والتشريع والإصلاح على مر القرون ، لنيل هذه الغاية فنالوها .

على أن الإنسانية لم تزل بحاجة إلى من يوضح هذه الخطوط ، إذا درست بفعل العوامل المختلفة وتمهُّدُ ذلك ضرورة ، لا بد منها لمصلحة الدين ، ولمصلحة الناس أجمعين

وأقصد بالدين ، الخلاصة التى اشتركت كافة الديانات فى تقريرها ، وعملت الرسالات المتعاقبة على إبلاغها . ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها فى صيغتها الأخيرة ، وأعطاها صبغتها النهائية ، وربطها بفطرة النفس السليمة ، والعقل الرشيد ، ووجَّه قلب الإنسان ولُبَّه إليها ، عندما قال :

« فَأَقِمْ وجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

وعلى نصوص هذا القرآن ، أعتمد فى الاستدلال والاستنتاج ، مسترشداً بما قد يرد فى السنة ، من شرح وتفصيل .

وأكرر مرة أخرى أن البحث فى هذه الرسالة دينى محض ، أضعه تحت أنظار معتنقى المذاهب الاقتصادية ، ليحكموا بعده للدين أو على الدين . . .

وطريقتنا تقوم على احترام ظواهر النصوص ، والتمشى مع قواعد الدين العامة ، فإن ضروب التأويل التى تعلق بها الكثيرون ليست إلا لوناً من تحريف الكلم عن مواضعه ، خدمة لبعض الأغراض الصغيرة ، أو تحاشياً للاصطدام مع بعض السلطات القائمة ، أو تحكيما للعرف السائد والتقاليد المتوارثة فى الدين نفسه ، ليلين معها ، وينحرف فى تيارها .

لقد ورد فى الحديث مثلا : « من جدع عبداً جدعناه ، ومن خصى عبداً خصيناه »

فجاء قوم وقالوا : إنما قصد الشارع عبداً تحرر ! !

والغرض من هذا التأويل أن يجر الدين إلى جواز خصى العبيد ! !

وقد التصقت هذه النسبة بالدين ، حتى جاءت الحضارة الحديثة فحرمت النخاسة[1] وما يتبعها من خصى ونحوه . وهى وما تبعها لم تحل فى دين من الأديان . بل قد وردت نصوص تحرم اختطاف الأحرار . وتحرم إيذاء الرقيق بالكلمة النابية — بله قتل الرجولة فيهم — .

ولكن سوء الفهم — هنا — فرض على الدين فرضاً ، فتجنى الناس على الدين .

وجاء الدين — مثلا — يقرر الشورى فى الحكم ، فجاء بعض المفسرين يقول : إن الحاكم يستشير ، ثم يمضى على رأيه ، لا على الشورى .

---

(١) خطف الأحرار على نحو ما كان يحدث فى القرون السابقة

وبذلك أصبح معنى النص يتحمَّل الشيء وضده !

فإذا قال القرآن : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » كان معنى الآية يبيح للحاكم أن يكون ديمقراطياً وأن يكون مستبداً ! ! ما دام له حق القبول وحق الرفض .

ومثل هذه التأويلات ترحب بها الحكومات المستبدة فى الشرق الإسلامى ولعلها نبتت فى ظلها وبإيعاز منها .

ومن ثَمَّ قال الشيخ محمد عبده — فى هذه التمحلات البعيدة — : « إنها نزغات شياطين وشهوات سلاطين » .

وقد هونت هذه التأويلات من قداسة الدين وغضت من كرامته ، ولذلك نريد أن نجليها عنه .

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

ثم يجب أن نعرف أن هناك أهدافاً كبرى للدين ، يعمل للوصول إليها ولا يتخلى أبداً عن المطالبة بها ، وله مطالب أخرى ثانوية ، تدور مع الأهداف الكبرى ، كما يدور عَقْرَبُ الثوانى فى الساعة ، يتجه كل ناحية ، ولكنه — فى حساب الزمن — خاضع للعقربين الكبيرين ، لا يضطرب أبداً معهما .

وكثير من المتدينين ، وقفوا عند هذه المطالب الصغرى ، فلم يفقهوا من الدين إلا قشوراً ، لا تُغْنِى عن اللُّباب ، وقيوداً تنبو عنها روح الكتاب .

وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، يتطلب منا أن نحترم النصوص الجزئية ، وأن نحترم — كذلك — الدلائل العامة .

فنحن نريد أن ننصف الدين . . نريد أن نداوى بالإيمان ما يراد له أن يُدَاوَى بالكفر والعصيان ! !

وسيجد القارىء فى هذه الرسالة طائفة من الأفكار الدينية ، أرجو أن تكون بداية مُوفَّقة للكلام فى هذا الموضوع الخطير .

الطبقات المترفة والطبقات البائسة

الترف والبؤس :

للترف تاريخ يضرب فى أغوار القدم .

ولمظاهره المادية والأدبية آثار عرفها المتقدمون والمتأخرون من سكان هذه الأرض .

وللبؤس — كذلك — تاريخ تمتد جذوره فى ماضى الإنسانية البعيد . ولِصُوَره المادية الكئيبة ، معالم عرفها الأسلاف والأخلاف جميعاً ، وكلا تواردا عاماً الأمرين — من ترف وبؤس — تواردا على أجيال البشر ، لا كما يتوارد الليل والنهار منتظما ، يستوى الأحياء كافة فى الانتفاع بضيائه والهدوء فى ظلامه ، بل هو توارد آخر ، جعل ظلام البؤس قسمة لبعض الناس ، يعيشون فيه أبداً ، ويفقدون فيه أبصارهم — إذ أنها لا ترى فيه شيئاً — وجعل شعاع النعمة مشرقاً على بعض آخر .

فهم يعيشون فيه أبداً ، وهم يَعْمَوْنَ فيه كذلك ، من طول ما يَبْهَرُهُم رونقه ، ويأخذ أبصارهم تألُّقه ! .

وفى ظهور الترف والبؤس ، توجد الطبقات المترفة ، والطبقات البائسة ، ويولد نظام الطبقات ، ويحدث التظالم الفردى والاجتماعى والسياسى ، وتنشأ معانى السيادة والرق ، والقداسة والضعة ، وتقرر شتى التقاليد المرتبطة بهذه الأمور ارتباطاً يقترب ابن المقفع من وصفه إذ يقول :

إذا افتقر الرجل اتَّهمه من كان له مُؤتمناً ، وأساء به الظَّن مَنْ كان يظن به حسناً .

فإذا أَذنب غيره ظنّوه ، وكان للتّهمة وسوء الظن موضعاً .

وليس من خَـلّة هى للغنى مدح ، إلا وهى للفقير عيب :

فإن كان شجاعاً سُمِّيَ أهوج ، وإن كان جواداً سُمى مُفسداً ، وإن كان حليما سمِّى ضعيفاً ، وإن كان وَقوراً سمى بليداً ، وإن كان لَسِناً سُمى مهذاراً ، وإن كان صَموتاً سُمى عَيِيًّا .

سر هذا التقسيم :

وَقَرَ فى النفوس : أن تفاوت الناس فى اقتسام الأرزاق سُنة إلٰهية ، وأن انقسام الأمم — تبعاً لذلك — إلى طبقات ، تتفاضل بحسب ما تملك من متاع الحياة وخيراتها ، أمر طبيعيٌّ . قَصَد إليه الدين بل صرّح به القرآن الكريم ، وفى تسويغ ذلك تُساق آيات شَتَّى .

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ؟ » .

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » . . .

ونحن نقول : بأن الدين منذ — فجر الخليقة — حرب فكرة تقسيم الناس إلى طبقات ، على أساس ما يمتلكون من أنصبة مادية ، جسمية أو نفسية .

والآيات السابقة لا تخدم الغرض الذى تساق من أجله ، ولا يجوز أن يبقى فى ظلها نظام الطبقات المعروف بتبعاته ومغارمه ومظالمه .

فالآية الأولى ، إنما تدل على أن الله استخلف الناس في الأرض ليعمروها وليكدحوا فيها وفاوت بينهم فيما منح من الوسائل الأدبية والمادية التي تعين على ذلك .

فالناس ليسوا سواء في الذكاء والغباء ، وليسوا سواء في العمل والكسل . ومن ثَمّ يجب ألاَّ يتساوَوْا في الأجر المادي والأدبي الذي يأخذونه بإزاء طاقتهم وجهدهم . وذلك معنى الابتلاء الذي تضمنته الآية والتهديد الذي ختمت به .

والآية الثانية صريحة في أن التفاضل في الرزق — إن جاء من أسبابه المشروعة — لا يسوغ أن يكون مُثار جشع وحرص ، يجعل الفاضل بخيلا به على المفضول ، بل ينبغي أن يرد الممتازون بالمال بعض ما معهم على مَنْ تحت أيديهم ، من الخدم والأتباع وغيرهم ، شكراً لله على ما ميزهم به من مواهب وسلطان .

وليس في الآية ما ينفي جعل التفاضل في الرزق تابعاً للتفاضل في العلم والفن وخدمة الوطن والمجتمع ، بل ذلك مفهوم من الآية الأولى ومن غيرها .

وأما الآية الأخيرة فهي تشير إلى أن جسم الأمة كجسم الإنسان ، لا بد فيه من رأس مُدبِّر ، وعقل مُفكِّر ، ومن أطراف تُسخَّر للتنفيذ ، وأعضاء [illegible] [illegible] لبلوغ الغايات المقصودة .

وهذه حقيقة مقررة في كل أطوار [illegible] ، فإن الناس لا يصلحون فوضى ، [illegible] [illegible] من تنوع الوظائف إلى علمية وعملية ، [illegible] ، ومن [illegible] يوجد التفاوت [illegible] المستحق [illegible]

ولكي تصلح الأوضاع [illegible] كل وظيفة من يستطيع القيام بأعبائها .

ومن ترشحه مواهبه للعمل فيها ، وملكات الناس فى ذلك متباينة أشد التباين .

فهذا مهندس للمصنع يعمل فيه بعقله ، وهذا عامل مجرد يشتغل فيه بيده ، وهذا يتبع ذاك فيما يشير به ، لأن هذا يضع التصميم ، وذاك يقوم بالتنفيذ .

والخضوع الواجب فى مثل هذه الحالات ، هو خضوع الجند لأوامر القيادة فليس هو أبتة تسخير إذلال وقهر ، ولكنه تسخير نظام وعمل .

هو ترتيب يشبه ترتيب الأعداد صعوداً أو نزولا ، فالأول قبل الثانى ، والثانى بعد الأول .

وأساس هذا الترتيب أو هذا التسخير ، هو المكانة الذاتية وحدها .

على أن الملاحظات فى البيئات التى يظهر فيها الترف والبؤس ، ويوجد فيها انقسام الطبقات ، غير ذلك .

وقد يقوم التفاوت على مقام التفاوت العقلى ، ويستنكر بروز الفقير من طبقات مغمورة . وتوضع الموازين الكثيرة لمعرفة قدرهم ، ورجحان درجهم

ومما سجلته آية القرآن الكريم حين حكت الاعتراض على نزول الوحى فى بيت يتيم :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

وحين ردت الأمور فى نصابها ، صحح هذا التفاوت العقلى — وجعله — أساس منزلة الناس من حقير وعظيم « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وهكذا تجرى رحمة الله كما قدرها على قسمة ربانية غير مقترنة [illegible] الجاه ، فالتفاوت الملحوظ بين الناس ، فيه مقياس [illegible]

ومن ثم تختم الآية بهذا التذييل « وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

أوضاع معكوسة :

شتان بين ما هو كائن وما يجب أن يكون فى بلاد الإسلام البائسة المنكوبة ، بأفانين من الاستعمار الداخلى والخارجى .

إن الغنى والفقر — وحدها — ميزان الطبقات هنا وهناك . الغنى الذى لا يُعْرَف من أين جاء ، والفقر الذى لا يُعرف كيف حَلّ .

فى مصر شعب تضطرب به سهول الوادى الفسيحة ، يكدح وينصب ليرتاح على ثمار جهوده نفر من الأعيان والوجهاء .

شعب أقعده الشقاء ، وأضراه الحرمان ، وقِلَّةٌ أبطرها النعيم ، وأغواها الطغيان .

ما هذه الفوضى الشاملة ؟ وكيف تستقر هذه الحماقة باسم الدين ؟

أهذا هو الإسلام الذى يجعل العلم وحده مناط رفعة الدرجة ، ويجعل التقوى وحدها أساس امتياز الأفراد ؟

أفتعطى الأعمال فى مصر على أساس الكفاية فى العلم والدين ؟ . .

إذاً فما أسعد الوظائف بأصحابها ! .

أفينقسم الناس طبقات شتى على هذا الأساس عينه ؟

إذاً فما أشقى الفقراء بغباوتهم ! .

أم هى الأوضاع المنقلبة والحقوق المسروقة ؟

أجل إنها لكذلك ، ولو استقام كل شىء على وجهه الذى يرضى الله لارْتقَتْ جماهير هائلة من الحضيض الذى تتقلَّب فيه ، إلى مستوى آخر تسعد به ويسعد بها .

ما أحوج الشرق إلى أن تعمر العدالة الاجتماعية ربوعه الخَرِبة ، وأن تنقل إلى الحياة الصحيحة شعوباً أعياها اللغوب ، وأضناها طول الغِلاب . . .

أما استغلال الدِّين لتجريع الشعوب ما تغصُّ به من مرارة الظلم وهضم الحقوق ، فهو ضَرْبٌ قبيح من ضروب الإلحاد ، إن لم يكن أقبحها على الإطلاق .

رأسمالية قديمة :

استوقفَتْ نظري هذه الآية الكريمة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

فإني شعرت بأن التساؤل الذي انطوت عليه الآية ، يتضمن اعتراضاً رأسمالياً صادقاً في تصوير حالة قائليه .

وأدركت أن الفكرة التي يصدر عنها الأغنياء ، في تصرفاتهم مع الفقراء تكاد تكون — قديماً وحديثاً — واحدة ، لا تتغير ولا تتطوَّر .

وأساس هذه الفكرة الغائرة في الماضي ، الممتدة مع الأيام ، أن الله جعل الأغنياء أغنياء هكذا ، لأن الله أحب لهم أن يستمتعوا بنعمة الغنى ، وأنه جعل الفقراء فقراء هكذا ، لأنه شاء لهم أن يَشْقَوْا بمصيبة الفقر .

وأنه فاوت بين الناس ، فخلق الْمُكْثِرين والمقلِّين ، قصداً إلى إقامة فوارق مادِّية طبيعية بينهم ، على أساس التفوت في ثرواتهم ، وأنه لذلك فضَّل البعض على البعض في الأرزاق والمعايش ، فليس يجوز إيجاد أي نظام يصادم هذه الحقائق .

وقد زَيَّف القرآن هذا الكلام الذي يحمل مسحة من المنطق ، بين قيمة أصحابه عندما عقب على تساؤلهم « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ » بقوله لهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

وذلك أن الأغنياء — فى نظر الإسلام — لا يجوز أن يبقى لهم غناهم كاملا ، وأن الفقراء ، لا يجوز أن يبقى عليهم فقرهم كاملا .

ولا بد أن يشترك هؤلاء وأولئك ، فى إقامة مجتمع ، لا يوجد فيه الرجل المترف والرجل المحروم ، وأن التفاوت فى الأرزاق كالتفاوت فى المواهب ، لا يصح أن يكون ذريعة لإهدار المصلحة العامة ، بل هو وسيلة إلى إقامة هذه المصلحة وتكليف كل فرد بنصيبه الشخصى منها — على قدر كفايته الذاتية الخاصة .

حقاً أن الله فضّل بعض الناس على بعض ، فى الملكات والوظائف والحظوظ النفسية —

ولا أظن الشيوعيين فى بلادهم يستطيعون هَدْمَ هذا المبدأ الطبيعى .

فهم يعطون القائد أكثر مما يعطون الضابط ، وهذا أكثر مما يعطون الجندى —

لكن هذا التفاضل فى الأرزاق لا يعنى التقاطع بين الناس والتظالم بين الطبقات ، والتوقّح على مُقَسِّم الأرزاق .

نقول له : ما دمت قد أفقرت فلِمَ تُغْنى ؟ وما دمت قد أغنيت فلم تفقر ؟

بل يجب أن نجعل من ذلك مبدأ تعاون تام واشتراك عام ، فى بناء مجتمع ينتفى منه الترف والبؤس ، ويسوده العدل الاجتماعى الشامل .

ومن الأقاويل التى سمعتها فى تبرير الحرمان والهوان ، الذى تلقاه الجماهير الفقيرة ، أن الدّين لم يفرض الزكاة فى أموال الأغنياء ، إلا على أساس اعترافه بالفقر والفقراء ، ونظره إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار ! !

وعلى هذه الطريقة فى الاستدلال يمكننا أن نقول : إن الدين لم يفرض الجهاد على المؤمنين ، إلا على أساس اعترافه بالكفر والكافرين ، ونظره إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار ! !

ثم لكى نضمن بقاء فريضتى الزكاة والجهاد ، يجب أن نعمل على بقاء الفقر والكفر ؛ وإلا لم يبق للأغنياء والمجاهدين ، عمل يقومون به إيمانا واحتسابا . .

أرأيت كيف تنتهى الحماقة بأصحابها ؟ ؟

إن الله عز وجل لا يحب من الناس ، أن يشردوا أو يفسدوا وهو القائل :

« إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .

ولا يحب لعباده كذلك ، أن يشقوا أو أن يفتقروا ، وهو القائل :

« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

فإذا كان اعوجاج الحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وزيغها عن سواء السبيل ، قد أدى إلى ظهور الفقر والكفر هنا وهناك ، فإن رسالة الدين تقوم على علاج هذا الانحراف ، وتستهدف رد الناس جميعاً إلى الإيمان والأمان ، كما تقوم رسالة الطب على علاج الأمراض وقتل جراثيمها ، فهى لا تهادن المرض لحظة .

وكما تقوم رسالة العلم على محاربة الجهل واكتساح ظلماته ، لا تسكت عن ذلك فترة .

فالقول بصداقة الدين للفقر ، يشبه القول بصداقته للكفر ، يشبه القول بصداقة العلم للجهل ، والطب للمرض ! !

إن الخطأ قد يكون طبيعة فى البشر .

وتاريخ الإنسانية لا يعدو أن يكون سعياً نحو الكمال ، وتخلصاً من الآفات العقلية ، والأوزار الاجتماعية التى تعترض هذا السعى الحثيث .

لكن بقاء الخطأ فى طبيعة الإنسان ، لا يرقى بالخطأ إلى اعتباره ضرورة من الضروريات المحتومة .

فمن الخبل أن يُظَنَّ بالدِّين ميله إلى بقاء الفقر ، لأنه أعدَّ له — مثلا — فريضة الزكاة .

أجل ! سيبقى الناس متفاوتين فى أرزاقهم ، بعضهم فوق بعض ، أو بعضهم دون بعض ؛ فتلك سنة الحياة .

ومهما اجتهدنا فى تعميم العدالة وتوزيع الخيرات فسيبقى من يستحقون الرحمة والعطف ، ممن يَحيفُ عليهم الخطأ والنسيان .

ولن تعم الناس حالةٌ ، يستغنون فيها لحظة ، عن رقابة الدِّين ويقظة الضمير ، ما دامت منابع الظلم فى شِيَمِهمْ ، لا يدركها جفاف ! !

الصراع بين الخير والشر

تتضافر نصوص الدِّين الصريحة ، وقواعده العامة ، على تحقيق وحدة الأمة فى ظل العدالة الصحيحة .

ونستطيع أن نرى مصداق ذلك (نصوصاً) فى آيات القرآن الكريم (وتطبيقاً) فى السنوات الأولى من عهد الخلافة الراشدة ، التى يصح اعتبارها امتداداً لعهد النبوة .

أما مراحل التاريخ الإسلامى بعد ذلك ، فقد اكتَنَفَتها فِتَنٌ مزعجة ومظالم دامية . وعملت السياسات الغاشمة عملها على مَرِّ القرون . لكى تصرف المسلمين عن لُبَاب دينهم ، وتشغلهم بقشور خفيفة الوزن من تعاليمه . فأصبح علمهم بدينهم يكاد لا يتعدى الزَّبد الذى يذهب مع التيَّار جُفاء إلى الحقيقة الخالدة التى تنفع الناس وتعمر بها أخلاقهم .

أما القرآن نفسه فقد بقىَ ناطقاً بالحق شاهداً به على مَنْ هجَره من الناس !

وإذا كان التاريخ قد خط للغباء الأرستقراطى سِجلاًّ حافلا بمهازل الشرف المزعوم ، ومساخر النُّبْل الموهوم ، فقد جاء الكتاب الكريم بعرض مستفيض ، لما ردَّد القوم من أكاذيب ، وما كَبَّر فى نفوسهم من أباطيل . ثم أخذ يكشف خَبْأها ، ويفضح زَيفها ، ويُظهرُ بطلانها ، ويهزأ بغرورها .

حتى لتكاد تلمس فى ثنايا الآيات أنقاض ما انهدم من نظام الطبقات . وتسمع عند تلاوتها آخر ما أرسلت النَّعْرَةُ الكاذبة من أنفاسٍ قبل أن تفترسها قوى الخير — وهى فى طريقها إلى الأرض — حاملة نور السماء !

القرآن والطبقات المترفة :

يرى القرآن وجود الطبقات المترفة ، خطراً دائماً ، لا يفتأ يتهدد الحياة الإنسانية ، ويملأ سماء مستقبلها بالغيوم والرجوم .

ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحقها ، يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة ، للحيلولة دون ظهور الترف والمترفين .

وقد ذكر القرآن عدة أسباب لتبرير هذه الخطة الحاسمة :

أولا : يقرر القرآن أن المترفين أعداء كل إصلاح ، وأنهم خصوم الحق المتألبون ضده فى كل زمن ومكان ، تكاد لا تنبث دعوة للحق والشر حتى ينبأوا عنها متخذينَ نحوها صفة أحزاب « المعارضة » . . .

المعارضة الخسيسة التى تريد أن تسكت حديث الخير والعدل ، بحديث الثروة والمال ، وتهجر مطالب العقل ، المتطلع إلى الهدى ، إلى مطالب الخوف المتكالب على الشهوات ، وتهبط بطموح الروح إلى الحرية والكمال ، إلى حضيض المادة المتدفقة بالرفاهية الناعمة ، والجمود البليد .

ومن هنا وَجَّه إليهم القرآن اتهاماً عاماً ، وألحق بهم وصفاً ثابتاً دقيقاً :

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وهكذا ندد القرآن بموقف هذه الفئة المتعالية ، وهزأ بمعتقدها ، بما تملكه من متاع واستحمق تفكيرها الذى يربط مجد الدنيا وسعادة الآخرة بكثرة الأموال والأولاد .

« وَمَا أَموَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » .

وقد فَصَّل القرآن فى كثيرمن سُوَرِهِ ، موقف الطبقات المترفة ، تجاه كل كتاب منزل وكل نبى مرسل ، فكان التكذيب واحداً للدين الواحد الذى بعث الله به أنبياءه من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله عليه وسلامه .

ومما يُثيرُ العجب تشابه الرد الذى انتظم على ألسنتهم جميعاً حتى لتكاد تجزم بأنهم يشعرون بعاطفة واحدة ، ويدافعون عن مصلحة واحدة .

فى نوح ورسالته وأتباعه يقص القرآن هذا الرد :

« فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْى ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » .

وفى رسالة هود : « فَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ — الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا — مَا هٰذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » .

وفى رسالة صالح :

« قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ

مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » .

وفي رسالة شعيب :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » .

وفي رسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه :

« فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ . . . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ؟ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » .

وقد رأيت في رسالة محمد — صلوات الله عليه وسلامه — كيف ضاق المشركون ذرعاً بالقرآن ، لأنه لم ينزل على رجل من القريتين عظيم ! !

وكيف استهزءوا بمن آمن به حتى قالوا : « لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » . . .

وكيف أخرجوهم من قريتهم ، وحاربوهم في مهجرهم .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ . قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » .

ورسالات الإيمان والإصلاح ، التي حمل لواءها الأنبياء ، تهدف إلى مساواة بين الناس ، في عبادة إله واحد ، يدين له الجميع بالطاعة ، ويصدع الجميع بما يأمر به وينهى عنه ثم يتسارع الجميع — على سواء — في إقامة صروح العدالة والفضيلة والدفاع عنها .

ولكن حين ورثها الجبابرة والمتسلطون والمستعلون ، ومردوا على الترف والغرور

والانتفاخ ، رفضوا أن يتقدموا خطوة فى هذه السبيل ، حتى ذكر القرآن فى معرض الأسف والغضب هذه الحال المنكرة :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ فى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » .

ولم يستثن القرآن من الرسالات التى لاقت هذا العنت ، إلا رسالة يونس ولعلّ قريته خلت من هؤلاء المترفين المعوِّقين إلى حين !

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » .

ثانياً : يقرر القرآن أن الطبقات المترفة ، مصدر فساد عريض ، ومثار فتن متجددة ، وأنها — بجوار غيرها من طبقات الأمة — تشبه المستنقع الراكد ، لا تزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتنبعث منه روائح الحمى .

فإما تدارك المصلحون الأمر فردموا المستنقع واستراحوا منه ، وإما بقى على حاله فاسداً مفسداً حتى يعم الوباء ، ويستشرى الخطر وتصاب الأمة بالفناء العاجل ، يلحق كيانها ، ويحطم أركانها .

إن أساس التأخر وسبب الدمار الذى يصيب الأوطان والشعوب ؛ هو من هذه الطبقات .

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » .

ومرجع ذلك إلى أن حياة الترف ، تحول دائماً عن مشاغل العمل وأسباب الكفاح ، ولا يتسع الميدان فيها إلا للبطالة واللهو .

وطبيعة الشهوات الإنسانية أنها إذا لم تجد حدوداً تقف عندها ، طغت بأصحابها ، وسخرت قواهم للأغراض الدنيئة .

فإذا كان الحكم يكاد لا يتجاوز حدود هذه البيئات ، فماذا تكون حال الأمة التي تنكب به ؟ .

إن عدوى الفساد الخلقيّ والاجتماعي والسياسيّ ، تهبط من أعلى إلى أسفل وتكون دائرة محكمة من التقليد الباغية ، والمظاهر الفارغة .

فإذا استطاع فرد أو أفراد من طبقة أخرى — بجهدهم وسعيهم — أن يكتسبوا من المال والجاه ما يخرجهم عن حدود الطبقات التي خرجوا منها ، وينظمهم في عداد المترفين السعداء ، فإن مسلكهم العملي ينسجم أتمّ الانسجام مع مقتضيات حياة الترف وتقاليد المترفين ، ذلك أنهم يتنكرون — على مرّ الأيام — لنشأتهم الأولى ، فلا ينتظر منهم إلا أسوأ ما ينتظر من الأوتقراطيين المتوقحين .

ولهذه الشهوات الحمراء وَقُودها الذي تشتعل به ، ولن يكون هذا الوقود إلا حطام الطبقات البائسة ، بعد أن يراق دمعها ، ويستنزف جهدها ، ويجف عودها ، ثم يرمى بها في أتون المطامع والنفوذ ، لكي ينعم مَنْ ينعم ، ويستريح من يستريح .

ومن ثمّ فليس أبغض لدى هؤلاء المترفين من كل دعوة توقظ الغافلين ، وتقيم القاعدين ، وتوجه أصحاب الحق إلى حقهم .

وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى الشعوب جاهلة ، لأن العلم ينير لها طريق النجاة .

مريضة ، لأن القوة تخلق روح التمرد ، والصحة توحي بالأمل وتغري بالنشاط.
فقيرة ، لأن ثمرة عملها — إن كان لها ثمرة عمل — لا يبقى منه فضل يتسع للبذخ والسرف ، أو يسمح بالاطمئنان إلى الترف .

وقد صدق من قال : « ما رأيت إسرافاً إلا وإلى جانبه حق مُضَيَّع » .

وعندما تكون الشعوب بهذه المثابة ، تسقط من أول ضربة يتناولها بها الاستعمار الخارجي ، وتلك هي علة العلل فيما أصاب الشرق أخيراً من انهيار وانحطاط .

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » .

وقد أدرك المستعمرون هذه الحقيقة ، فمهَّدُوا لبقائهم في البلاد التي احتلوها بإنماء نظام الطبقات ، وضمنوا للمترفين ما تصبو إليه شهواتهم ، من حياة رغدة وتركوا كتل الشعب الكبرى يموج بعضها في بعض ، تطلب الضرورات الأولى للجسم والنفس والعقل ، فلا تجد من ذلك إلا الاجرعات ، تسكن ثورانها أن ينفجر ، أو تبقى للعبيد الرمق الذي يحيون به لخدمة السادة . . . فحسب ! .

ثالثاً : ويقرر القرآن أن المترفين أعداء الشعوب ، وأن على الشعوب التي تريد الحياة الكريمة في الدنيا ، والحياة السعيدة في الآخرة ، ألاَّ توالِيَ هؤلاء الطغاء ، وأن تأبى الدخول في طاعتهم ، والإذعان لأوامرهم ، وإذا كان مصيرهم مصيرَ القائلين :

« رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » .

ذلك أن عقلية هؤلاء المترفين ، تقوم على زعم كاذب ، بأن ميراث الأرض ، وخيرات الدنيا ، وتصريف الأمور ؛ كل أولئك ليس إلا احتكاراً

لهم ووقفاً عليهم — اختصوا به لأمر يجهله الناس — وأنه ليس على الناس إلا أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن يقدموا لهم أنفسهم وأموالهم وحرياتهم وحقوقهم طائعين .

فإذا حدثت أحداً نفسُه بغير ذلك ، فهو حقيق أن ينفى من الأرض ، التى عصى أمر سادتها :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » .

بل إن هؤلاء القوم ليحسبون أن دعوات الإصلاح والعدالة ، ليست إلا ستاراً ، يختفى وراءه الطمع فى انتزاع ما يستمتعون به من سلطان .

فكل صيحة تنادى بالإصلاح الاقتصادى ، والعدالة الاجتماعية ، وتتيح لأبناء الأمة أقساطاً متساوية من الحياة الصحيحة ، وتجعل الناس لا يذلون إلا لبارئهم وحده ، تعتبر فى عرف هؤلاء الطغاة وفهمهم ، صيحة لمنازعتهم السلطة ، ومشاركتهم الدولة ، ومقاسمتهم الثروة ، يتذبذب فى صدورهم — بعد سماعها — منطق المتألهين من آل فرعون عندما قالوا لموسى :

« أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » .

مثل هذه العقلية الجامدة على موروثاتها ، المستهينة بحق غيرها فى الحياة الصحيحة ، لا يجوز أن تلقى من الشعوب إلا نبذاً واحتقاراً .

فإذا سول الشيطان لبعض الأذلاء المتملقين ، أن يعيشوا لهؤلاء أتباعاً

يأكلون على موائدهم ، ويدفعون عن مبادئهم . فهم مع من ارتبطوا بهم في الدنيا والآخرة لكل خزى يتبعه خزى ، وعذاب يلحقه عذاب :

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟

قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ما لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

هذه أسباب — أجملناها — لِرَأْي القرآن في الطبقات المترفة !

ونحن حين نرسل نظرات خاطفة إلى تاريخنا الطويل ، نجزم بأن قوى الشر قد انتصرت في كثير من الأعصار والأمصار .

ونرى أن الطبقات المترفة لم تلبث أن استعادت سلطانها ، الذى أفقدها الإسلام إياه ، يوم أن كان الوحى غضًّا فتيًّا ، ويوم أن كان الحق عزيزاً بجنده وأنصاره . .

فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى عبيد الشهوات ، وجلَّادى الشعوب ، وقف سير الحضارة العادلة الرشيدة ، بل تراجعت تراجعاً آليًّا في نواح كثيرة . .

ولو استقْرَأْنا أحوال ثلاثة عشر قرناً ، من الصِّراع الصَّامت المنيف بين الحق والباطل ، وبين الظلم والعدل ، وبين الشورى والاستبداد ، لرَاعَنا أنَّ حساب الأرباح ضئيل ، يكاد لا يَبين ، وأن حساب الخسائر سَيْلٌ لا آخر له ، ولَرَأينا أدلة واقعيَّة تتزاحم أمامنا ، شاهد عدل على أن الأمم التى تسلم زمامها للمترفين من أبنائها إنما تُسَلِّم عنقها لجزار أثيم .

فُصَاراه — إزاء الشعب — أن يذكر الله وهو يذبح الناس .

وعلى ضوء هذا التاريخ المؤسف ، يجب أن نفكر طويلا .. إذا أردنا الحياة الواعية الرشيدة ، ويجب أن نعزم على اتخاذ كافة الوسائل التى تقيم الموازين القسط بين طبقات الأمة ، وأن نغلق الباب إلى الأبد ، في وجوه المتعطلين والمنتهزين .

ذكر إن نفعت الذكرى

تأتى على الأمم فترات تنسى فيها مُثلها العليا ، وتُعنى بخسائس الحياة ، وتوافهها ، ويتجه نشاطها العقلى والاجتماعى إلى اللغو واللهو .

هذه الفترات كساعات الإغماء للإنسان الحى ، أو كساعات الذهول للعقل المفكر ! !

إذا طالت كانت لها عواقبها الخطيرة ، بل إن أخطر مايعترى الأمم من انتكاسات وهزائم ، إنما يبدأ فى هذه الفترات الطائشة .

وقد أتى على الأمة الإسلامية عصر بل أعصار ، كان ساستها وقادتها لاشغل لهم إلا البحث عن اللذائذ ، والجرى خلف الشهوات ، وإشباع النزوات الدنيئة ، بفنون من العبث والمجون !

وولدت جراثيم الانحلال فى جسم الأمة يومئذ ، ثم مشت فى دمها ، ولم تزل بها حتى أوردتها سوء المصير .

وكان الشعراء المرتزقون كالصحفيين المأجورين فى هذا العصر ، يتملقون الطبقات المترفة ، ويصفون حفلاتها الماجنة وصفاً مُغرِياً ، ويسكتون سكوت المقابر ، عن وصف حالة الشعب ، وتصوير بؤسائه وضرائه . لأن النعم كان يُغْدَق عليهم إغداقاً من دوائر الدول الكبرى ، ومن المصاريف السرية ، ومن طوائف الكبراء المنتفخين ! .

وبلغ فجور بعض الشعراء فى العصر الأندلسى ، أنه ألف شعراً علق به الحمائم فى أغصانها ، وجعل أنغامه مشبهة لحبيبه ! فقال :

إن الحمـــام بأيكها تشدو
هل قد علمْ أو قد فهمْ أو كان
كالمتصم ومعتضـــد مكان :

وهكذا أنطقوا الحمام — وهى رسول السلام — بمدح أقوام كانوا حربا على مستقبلها ، وعلةً أصيلة فى الهزائم المتلاحقة الشنيعة ، التى سحقت دولة الأندلس ، ومحت معالمها محواً لانظير له فى التاريخ .

والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما فى هذا المدح الفريد ، قد تناولهما شاعر آخر من حكماء الشعر البُصَرَاء بأقدار الرجال ، وسياسات الدول ، فذكرهما فى معرض السخرية والازدراء ، وقال :

مما يُزَهِّدُنى فى أرض أَنْدَلُس ألقاب مُعْتَصِمٍ فيها وَمعتَضِدِ
ألقاب مَمْلَكةٍ فى غير موضعها كالهرِّ يحكى انتفاخاً صَوْلة الأسَدِ

وماأحوجنا — والعظة حافلة فى ماضينا الحافل — أن نحشد الأقلام والألسنة ، لتعلن على المترفين حربا لاتنتهى حتى ينتهوا .

فلن تقوم فى الشرق دولة عادلة وفيها مترفون ! ولن تبقى آمنة من النكسات المحذورة إذا بقى لهؤلاء المترفين أذناب مُرَوِّجون ، وصحفيُّون مأجورون ، وشعراء مرتزقون .

هل للرذائل أسباب اقتصادية ؟

العقائد الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل ، هى لُبَابُ الدِّين ، ومحور تعاليمه ، وغاية مايَصْبُو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل .

فإذا ضمنّا هذا الجو الرّحب ، فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته . وإلا فالدين لايَعْدُو أن يكون بضاعةً تُبَاع للناس فى بطون الكتب ، أو كلاماً تنقله طائفة من الرجال ، ويكون الدين حينئذ موجوداً على هامش الحياة فقط .

وقد رأيت بعد تجارب عدة ، أننى لاأستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة ، الجوّ الملائم لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة !! .

إنه من العسير جدًّا أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت مَعِدَتُه خالية أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان بدنه عارياً .

إنه يجب أن يُؤَمَّنَ على ضروراته التى تقيم أَوَدَه كإنسان ، ثم يُنْتَظر بعدئذ ، أن تستمسك فى نفسه مبادئ الإيمان ..

كثيراً ماوجَدْتُنى أعالج وعْظ الناس فى بيئات صَرَعها الفقر والمرض والجهل . فكنت أحار .. ماذا أقول لهم ؟ .

هل أُقبِّح لهم الدنيا ، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين ؟ .

إن الدنيا لن تكون أقبح مما هى عليه فى أعين هؤلاء التُّعَساء .

وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة ، أمسُّ من حاجتهم إلى من يعرّفهم أركان الإسلام ، وجمهورهم لايدرى الأساليب الصحيحة ، للزراعة والصناعة والتجارة فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه و . . . حكامه !

أعرفهم بالله عز وجل ؟ إن معرفة الله لاسبيل إليها إلا بعد معرفة النفس فإن من عرف نفسه عرف ربه .

وهؤلاء التعساء مَذْهولون عن أنفسهم ، تائهون عن حاضرهم .

إن الشعور بالهوان والحرمان ، قد شلّ تفكيرهم ، فأنّى يعرفون ربّهم؟ أو يشعرون بما قدموا له . إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم ، فهيهات أن يأخذوا الأهبة الحقة للدار الآخرة !

أنا لا أنكر أن وراء حَنَاياهم الضامرة ، قلوباً فيها إيمان مَّا ، وتديُّنٌ مَّا ، لكن قيمة هذا كله تافهة ، لاتُجْدِى على أصحابها كثيراً ، فى الدنيا ، أو الآخرة .

والدين الحق لايؤدى رسالته فى هذا الجو الخانق ، ولا تثمر عقائده فى هذه البيئات العقيمة .

فلا بد من التمهيد الاقتصادى الواسع ، والاصلاح العمرانى الشامل ، إذا كنا مخلصين حقًّا ، فى محاربة الرذائل والمعاصى والجرائم باسم الدين ، وهداية الناس لرب العالمين .

أما أن نترك الظروف التى تلد الجريمة حتى ، تنمو وتتكاثر ، ثم نكتفى فى خدمة الدين بالنصائح المجرَّدة ، والمواعظ المفتعلة ، فهذا فى الحقيقة هو العَبَثُ المبين .

ولست — هنا — أنكر قيمة الوازع الأدبى ، وأحاول بَخْسَ الضمير الإنسانى حقه ، فقد توجد أحوال شديدة توقف الإنسان على شفا جُرُفٍ هَارٍ وتطلق فيه غرائزه الدنيا ، ويتضافر الحرمان والإغراء على سَوْقِ المرء إلى الجريمة سوقاً عنيفاً ، ومع ذلك يتراجع عنها ، ويستنكف مقارفتها . وتنتصر مواهبه العليا آخر النزاع .

غير أن هذه الأحوال لايجوز انتظارها من كافة البشر ، بل لايجوز انتظارها من إنسان لايضىء الإيمان قلبه ، مهما بلغ فضله وزكت نفسه .

وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا ، وأن نقرر أن نسبة

الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من ثالوث الفقر والجهل والمرض ، أو إلى اثنين من هذا الثالوث البغيض ، أو إلى أفراده جميعاً . وأن زوال هذه الآفات الإنسانية ، يخفض نسبة الجرائم فى بلادنا ٩٠٪ .

ونحن نعرف أن فى مصر آلافا من العلماء الذين ينتمون إلى الدين وينبثون فى معاهده ومساجده ، وينطلقون فى المدائن والقرى ، يبشرون ويخطبون .

فهل وصلنا — بعد هذا المجهود المادى والأدبى الواسع — إلى درجة من الرقى ، والسلامة الاجتماعية ، كالتى وصلت إليها بعض الدويلات الأوروبية مثل سويسرا مثلا ؟ كلا !

فشتَّان بين عدد الجرائم عندنا وعددها عندهم .

وما أضخم القضايا التى تنظرها المحاكم عندنا ، من جنايات ، وجنح ومخالفات !

والعلة الأصلية فى هذا أن اختلال التوازن المادى والأدبى ، مكّن لشياطين الإجرام أن تعمل وتنجح .

فكيف لا يتدخل الدين فى تغيير هذه الحال ، إن أراد لنفسه البقاء ، ولرسالته التحقيق ؟

بل كيف يستغل الدين لإبقاء هذه الحال المنكرة . وهل معنى ذلك إلا أنه ينكر نفسه ويخفض رأسه ويحفر رَمْسَه ! ! ؟ ؟

ولْنَضْرِبْ مثلا ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ما قلنا .

السرقة :

جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتّب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تتراوح بين قَطْعِ اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة فى الخفاء ، وعند ما تكون السرقة بالإكراه (قطع الطريق) .

وعقابٌ كهذا ليست به شائبة قسوة ما دام القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصيانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السَّطْو على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام .

ولكن هذه الأغراض كلها تذوب فى مجتمعنا الذى يَزْخَر بأسباب التملك الباطل ، ووسائل الاستغلال المريب .

فإذا قامت حول الجريمة شبهات ، تجعل العقاب لا يحقق هذه المصالح وجب إيقافه .

ومن هنا أمر النبي صلوات الله عليه وسلامه أن ندرأ الحدود بالشبهات

وأمر عمر رضى الله عنه أن يعطل إقامة حد السرقة فى عام المجاعة !

ورأى أئمة الفقه أن دعوى الملك فى المسروق ، تمنع من الحدّ — ما دامت شبهة الملك معتبرة .

وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط لكى لا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة . يد اللص المعتدى على حق غيره يسرقه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويغنيه .

والمجرمون الذين يُعَدُّون من هذا النوع قلائل .. بل إنهم يعدون على الأصابع من بين الآلاف ، التى تقدم إلى المحاكم ..

روى مالك بن أنس فى الموطأ أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مُزَيْنَة فانتحروها ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فأمر عمر كَثِيَّر بن الصلت بقطع أيديهم ... !!!

ثم قال عمر أراك تجيعهم ؟ والله لأغرمنك غُرْماً يشق عليك .

ثم قال للمزنى كم ثمن ناقتك ؟ فقال : قد كنت — والله — أمنعها من أربعمائة درهم ! . فقال عمر لحاطب . أعطه ثمانمائة درهم ... !

قال ابن وهب . إن عمر — بعد أن أمر كُثَيِّر بن الصلت بقطع أيدى الذين سرقوا — أرسل وراءه من يأتيه بهم (ليرفع الحدَّ عنهم) .

فلما جيء بهم قال لعبد الرحمن بن حاطب : لولا أنى أظنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله لأكلوه لقطعتهم .

ولكن والله إذ تركتهم لأغرمنك غرامة توجعك . . .

من هذا الأثر ترى أن عمر فهم تشريع القطع على حقيقته .

فهم أنه عقوبة رادعة لمن يرتكب هذه الجريمة من غير حاجة تلجئه إلى مال الغير .

وحين تبين له أن هؤلاء الغلمان اضطروا إلى السرقة — لما نالهم من جوع وحرمان — أبعد الحد عنهم .

وإذْ أسقط الحدَّ عن هؤلاء المرهقين ضاعف العقوبة على ربِّ المال الذى أساء الامتلاك ، وكان — بأثرته — علة هذا الاضطراب فى المجتمع . . . !!!

والاضطراب الاجتماعى الخطير فى هذا الوادى ، هو الذى يَصم باللصوصية أقواماً ، كان من الممكن ألاَّ يُوصَمَوا بها قط ، يُبرِّىء من اللصوصية أقواماً ، كان ينبغى ألا تنفك عنهم أبداً .

ولعل من أيسر الأمور إقامة مجتمع تقِلُّ فيه جرائم السرقة ، أو تختفى ، لا بالإرهاب والقطع والقتل ، ولكن بمنع الأسباب غير النفسية ، أى بمنع الأسباب المادية ، التى تُلْجِيء إلى السرقة فى أغلب الأحيان .

عندما تفتح أبواب العمل ، وتضبط مصادر الكسب ، وتحدد أسباب الملكية وقيمتها ، وعند ما يعرف نور الحياة ونور العلم طريقه إلى المشردين من أبناء الأمة ، وعند ما يحول تعطل الطبقات المترفة إلى عمل ، وتستثمر أموالها فى المشروعات التى يفيدون بها ويفيدون منها . . . عندئذ تقل جرائم السرقة حقًّا ! ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

الزنا :

جريمة خُلقية واجتماعية بالغة الفحش ، ولعل الاختلال الاقتصادي — بما يخلقه من بؤس وترف — أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، حتى نظم القانون[1] العام وقوعها وأوقات ارتكابها ، ومع من ترتكب ، واعتبرت أسواق البغاء العَلَنيّ وحفلات الليالي الساهرة ، من الأمور المعتادة للطبقات الصغيرة وللطبقات الكبيرة ، غير آبهين للصياح المختنق ، الذي يُرْسِله رجال الدين ، بين الحين والحين .

ومواجهة هذه المشكلة لا تكون بالاستنكار السلبي ، فما أسهل هذا الاستنكار على متعوّدي الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره في تغيير الواقع الأثيم .

إن الشهوة الجنسية لابد أن تتحرك ، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة ، لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة .

والعصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء ، أو الرجال المدنيين ، لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام ، يراد به حفظ عفة الأمة ، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

فإذا أردنا — باسم الدين — قَمْعَ هذه الحركات الخبيثة لشهوة جنسية . فيجب أن نيسر ، وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسي الحلال ، وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقّدة ، ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر ، في فهم حقيقة الزواج ، والأساليب المعسرة ، التي يتم بها الآن .

---

(١) صدر بعد ذلك قانون بتحريم البغاء ، ومع غض النظر عن نتائج مراقبة هذا التشريع المعاصر ، نرى أن له بقية لم تأت بعد ، فهناك الحفلات الراقصة ، والسهرات العابثة ، والليالى الحمر ؟ وإلغاء قوانين البغاء لا يغني عن إلغاء تقاليد البغاء ؟ فهي منه أخطر .

والطبقات الفقيرة والمتوسطة ، تواجه مع الزواج ثلاث مشاكل ، فالمهر عقبة ، وقد يسهل اجتيازها ، فتبقى مشكلة الدَّخل الواسع ، الذى يكفل حياة أولادٍ ، تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه .

وهذه كلها عوائق اقتصادية ، لا يقوى الدين بالكلام على حلّها .

وإنما يفرغ الدين منها ، عند ما يبنى المجتمع ، الذى لا يبقى فيه فقير ولا حقير ، والذى يقدم للفرد الضمانات المعقولة ، لكفالة أسرته ، ورعاية مستقبلها والذى يسخر فيه إنتاج الأمة ، لإسعاد الأمة كلها ؛ لا لترف بضعة أفراد منها ، فإذا تمّ ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا ، وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تمّ القضاء كذلك على جزء آخر من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل .

فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهّدْنا له طريق الفضيلة ، وَجَبَ جَلْدُهُ أَوْ رَجْمُهُ ، بل وجب قتله رَمْياً بالرصاص ! .

التعطل :

هو جريمة خُلقية واجتماعية ، تصاب الأمم من جرائها بشر مستطير . وقد نهى الدين عنه ، ووصى بأن يعمل المرء أىَّ عمل يقيمُ أَوَدَه ، ويحفظ حياته وكرامته .

والتعطل نوعان : تعطل المترفين ، أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

وقد أشرنا إلى الأضرار الناجمة من ترك هؤلاء بلا عمل يشتغلون به ، والنكبات التى تصيب الشعوب والأمم من وراء تبطلهم ! . .

ولما كان لابد من سد ذرائع الفساد ، وجب الْحَجْرُ على هؤلاء السفهاء ، وضغط حرياتهم الشخصية ، حتى يتحوَّلوا أفراداً منتجين ، وحتى تكون ثرواتهم المدخرة ، مصادر خير لهم ولغيرهم .

وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة ، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائها ، وتأوى إليه جرائم التسول والتشرد ، والفساد والعدوان .

وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لاريب فيها ، وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيعة لا ريب فيها كذلك .

ومن المستحيل قطع دابر هذا التعطل بالنصائح والتذكير ، مهما ارتفعت فيها حرارة الإخلاص ، ومهما سيق فيها من آيات الله والحكمة ! !

لأن الضوائق الاقتصادية الناشئة عن طغيان الاستعمار الداخلي مُحْكَمَةُ الحلقات ، بل هى تخلق التعطل خلقا ، وستظل السبل ملآى بالمتعطلين والمتسولين ، الأصحاء منهم ، أو أصحاب العاهات ، إلى أن تفض هذه الحلقات المضروبة ، وإلى أن يصبح العمل ضريبة يلزم بها كل فرد ، فإمَّا دفعها واستحق الحياة ، وإمَّا دفع دونها دمه وأخْلَى الطريق للعاملين .

وقد سُنَّت أخيراً قوانينُ للعمل ، هى دون مثيلاتها فى أوروبا ، وحددت أجور العمال فى مصالح الحكومة .

ولكن العمال الزراعيين يشتغلون شهرين من العام بأتْفَهِ الأجور ، ثم يتعطلون سائر العام .

والعمال فى شركات الاحتكار يأكلون لقمتهم مغموسة بالسُّم — كما يقولون — .

وكثيرون من أبناء الأمة موارد رزقهم مبهمة ، ونهاية حياتهم مظلمة .

ولو وجد هؤلاء أبواب العمل لاقتحموها ، ولكان إنتاجهم فيها مَضْرِبَ الأمثال . . . !

أمثلة وقاعدة :

هذه صورة سريعة لبعض الرذائل الخلقية والاجتماعية ، التى يضطرب فيها مجتمعنا ، والتى تمخَّضت عنها الأوضاع الاقتصادية المعوجة عندنا .

ولو ذهبنا نستقصي أسباب الكثير من المعاصي الدينية ، لَوَجدْنَا الضمير الإنساني يُمَانِي مِحَنًا قاسية ، ولَوَجَدْنَا الفطرة الإنسانية لا تلبث — وهي في سذاجة الطفولة — أن يدركها من الشقاء ما يطمسها .

فإذا تخطّت إلى دور الرجولة ، حالت خلقاً آخر لا تنتفع به دنيا ولا ينتفع به دين ، خلقاً يقارف الرذائل والمحاقر من الأمور ، ويعيش لها عيشته المشوّهة الناقصة ، حتى يوارى في بطن الثرى ، فلا تسمع له رِكْزاً .

أحَلال هذا أم حرام ؟ إن رجلين عاقلين لا يختلفان في حرمة هذه الحالة وقد وضع أئمة الفقه الإسلامي قاعدة ثابتة هي أن : « كل ما أدّى إلى الحرام فهو حرام » . فلابد إذاً من إعادة التوازن الاقتصادي ، على أساسٍ لا تبقى معه هذه الموبقات ، ولا تتوطّن فيه هذه المفاسد الشائنة .

فإذا لم نفعل هذا ، فأخوف ما أخافه أن يُنْكَبَ دِينُ الله ودنيا الناس جميعاً ، نَكْبَةً ساحقة ماحقة ، إذْ تُتَّهَمُ الدنيا بالظلم والطغيان ، ويُتَّهَمُ الدِّين بالسكوت على الظلم والجمود أمام الظالمين .

وينبغي أن لا ننسى — إذ نقرر هذه الحقيقة — صيحات رجال الثورة الفرنسية : « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » ! .

فقد اعتبروا الدين متآمراً مع الأورستقراطية ، على قتل الشعب وإهدار حقوق الإنسان .

ويقول القرآن الكريم — محذراً من عواقب هذا الاختلال الاقتصادي — :

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُون . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُم تُسْأَلُونَ . قَالُوا

يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ

وأنت تسأل إذ تقرأ ذلك : ما السر فى أن يُناقَش الظالمون الحساب فى مساكنهم ، التى قضوا فيها حياتهم الآثمة ! ثم لا تلبث أن تدرك الحكمة البالغة فى أن تكون ساحة المحكمة هى الديار التى شهدت المجرم باغياً عاتياً .

وهل أدلُّ على إشعار الجانى بما اقترف ، من أن يكون استجوابه أمام جسم الجريمة ومادتها ؟

وإذاً فَلْيَكُن حساب المترفين ، أن تعرض أمام أعينهم مظاهر من دنياهم المسرورة ، وإلى جانبها مظاهر ، من دنيا البائسين المقهورة .

ثم يؤخذ من المقارنة بين الحالتين ، نصُّ الاتهام ، ودليل الإجرام .

وسوف يذوق الجانى عقابه آجلا ، إن أفْلِتَ منه عاجلا ،

والظلم — أبداً — مَرتعُه وَخيم .

مساواة واهمة :

قد يقال : أين هى آثار نظام الطبقات ، وما هذا الكلام عن الأوضاع الاقتصادية المختلة ، مع أن الناس جميعاً يأخذون أنصبتَهم من الحريات العامة ، بأقساط متساوية . وهم — مهما تفاوتوا — سواء أمام القانون ، كما نص على ذلك الدستور ؟؟

وهذا كلام قد تبدو عليه مسْحَةُ الصحة ، ولكنه فى باطن الأمر عليل !

فليس القانون الموضوع — ليتحاكم الناس إليه — هو كل شىء ، حتى يذكر هذا الاعتراض .

فهناك تقاليد مقررة ، ومبادئ قائمة ، هى أعمق أثراً ، وأشد نفاذاً فى بيئاتنا كلها ، أقامت من الفوارق بين أبناء الأمة الواحدة ، ما يتعذر معه أى إصلاح .

ولقد أقمت سنوات فى المدن ، وسنوات فى الريف ، فرأيت أعراض هذا الداء متفشية فى كل مكان ، وتأكَّدْتُ من أن كرامة الفرد محدودة الثمن ، يشتريها ويدوسها — إذا شاء — موظف صغير ، وأن طبقات الأمة لا تستمتع بالمساواة الحقة الكاملة فى العلم وفى الحكم . بل ولا فى الطعام واللباس والتمريض والتوجيه العام .

والتفكير الأوتقراطى ، الذى شرَّد جَبَلَة بن الأَيْهَم ، لايزال يملأ رؤوس الكثيرين من سادتنا الذين لم يشردوا بعد .

وهذا التفاوت العجيب يظهر حتى فى الثياب التى نرتديها ! تلك الثياب التى جعلت من الأمة المصرية الواحدة « كرنفالا » لا تؤذن مهازله بانتهاء ، فكأن الأزقة والميادين تأخذ أمداد المارة ، من عدة شعوب ، أو كأنها تمِيجُ بخليطٍ ضَلَّ منبته الأصيل ، فليس يُدْرَى أعربىٌّ هو أم أعجمىٌّ .

ومع ذلك نزعم فى أنفسنا وَحْدَة الفكر والشعور والاتجاه !

فأين ذلك من وصية النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه لصاحبه أبى ذرٍ بشأن خادمه « أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس » .

ومن آثار هذا الاختلال ، أن تَلَوَّثتْ حقيقة الخير فى النفوس ، حتى هبطت إلى مُستوىً لم تهبط إليه من قبل . وأين — برب الناس — معنى الخير فى حفلات لاهية صاخبة ، يرصد دَخْلُها لإعانة المنكوبين ؟ .

وكيف يأبى المترفون إلا الحرص على مُتعهم الحقيرة ، حتى فى الساعات التى يصطرخ فيها الأشقياء ، فيأبى هؤلاء أن يرسلوا إغاثتهم إلا وقد أخذوا فى مقابلها لذَّة وأطفأوا شهوة ؟ .

أتراهم لو شعروا بالإخاء الصحيح ، والمساواة الكاملة ، التى تربطهم بجمهور الشعب ، أكانوا يستسيغون ارتكاب هذه السفسافات الوضيعة .

وقد انتشر هذا الفساد — من أعلى إلى أسفل كما أشرنا سابقاً — فإذا ألقيت نظرة عجلى على المنشآت الخيرية ، وجدتها لم تقم — غالباً — على برٍّ

خالص أو سماحة مشكورة ، بل وجدت الكثير منها تأسس على مال «اليانصيب» وهو المال الذى دفعه أصحابه طمعاً فى أن يرتد إليهم أضعافاً ؛ ليست الأضعاف السبعمائة التى ينتظرها المؤمنون ، بل هى الأضعاف المبهمة التى ينتظرها المقامرون.

ولست أعرف الخير ينتزع انتزاعاً من مصادر الشر ، كما أعرفه فى هذه المستشفيات ، والمبرات التى تستميت فى أخذ المال من جيوب لا يبذل أصحابها شيئا فى سبيل الله ، على حين يبذلون الكثير فى سبيل الشيطان !

ومن آثار هذا الانحلال أن ظهرت هذه الأورستقراطية العلمية الشائعة فى كثير من الأوساط المثقفة .

ففى الوقت الذى لا يزال جمهور الأمة يفكر فيه بعقلية الزنوج الْهَمَلَ ، تحت وطأة الجهل المتراكم عليه من قرون ، نرى البعض يفكر بعقلية اللاتين ، أو السكسون ، أو الأمريكان ، ويحيط نفسه فى البيت ، وفى النادى ، وفى الملهى ، بهذا الجو الغربى البهيج الألوان .

والهدف الفذ لهذه الطائفة ، أو لأغلب أفرادها ، أن يُحَوِّلوا قوتهم العلمية إلى قوة مالية .

فهم يتكالبون على شراء الممتلكات المختلفة من عِزَب وعمارات .

وبذلك تتآمر شتى العوامل على إبقاء الطبقة الدنيا ، فقيرة من العلم ، فقيرة من المال ، فقيرة من القوة والسلامة والعافية .

ونشأ عن ذلك ، أن معظم درجات التعليم ، لا يطيق الانتظام فى سلكها إلا القليلون من أبناء الطبقات العليا ، ونفر قليل من أبناء الطبقة الوسطى ، التى تكافح — دائما — لحفظ مركزها وصيانة حقوقها فى الحياة .

ورءوس هذه الطبقة ، كثيراً ما يتكلمون عن الأمة الجاهلة ، كما تراها عقولهم الكبيرة ، والضعيفة ، كما تحسها نفوسهم القوية ، يتكلمون عنها ، وهم لا يشاركونها حياتها ، ولا يشاطرونها آلامها ، لأن من خصائص طبقتهم الممتازة بالعلم والمال ، ألاّ تخالط المواطنين الآخرين إلا بحذر وقدر .

فالعلم والغطرسة على سواد الشعب متلازمان .

ولا يكاد أحد هؤلاء السادة يحي الجمهور إلا بهزة واهية من ذراعه ، ثم لا تلبث قوانين الجاذبية ، أن توقف تذبذبها ، ثم تردها إلى وضعها السابق العتيد .

ومن آثار ذلك أن الجندية يستطيع أن يفلت منها الأغنياء وأوساط الناس ...

أليس دفع (البدل) جائزاً ؟ وما دام يمكننا دفع ضريبة الجيب[1] بدل ضريبة الدم فعلى المساواة العفاء ! .

ومن الغرائب أنهم لما عدلوا هذا القانون ، جعلوا البدل الشخصى يقوم أحياناً بدل البدل النقدى ! .

أليس هذا ذريعة ليتمكن المترفون من إبقاء أبنائهم معهم ، وليأخذ الجيش حاجته من أبناء الفلاحين والعمال فقط .

مع أن الأمر الذى لا ريب فيه أن الأمة أحوج إلى إبقاء الفلاح فى حَقْلِه ، والعامل فى مصنعه .

وأشد حاجة إلى كف هؤلاء المترفين عن عبثهم الفارغ ، وقيادتهم — رغم أنوفهم — إلى ميادين التدريب والتمرين .

ولا نريد أن نمضى فى سَرْدِ المظاهر الدالّة على صدق ما أثبتناه أول هذا الكلام ، فهى كثيرة ملموسة ، ولا أن نضرب الأمثلة ، لما يحدثه تفاوت عناصر الأمة الشديد فى اقتسام أهم مقوّمات الحياة ، فما نظن أحداً يجهل ذلك ، ولكن نريد أن نعرف ، ما هى السبيل إلى تلافى هذه الأضرار والأوزار فنسلكها عاجلين مسارعين ؟

ولعلنا نوفق إلى صنع معالم الطريق ، بعد أن يصل بحثنا هذا غايته إن شاء الله

---

(١) صدر بعد ذلك قانون تعميم التجنيد وهذا حسن ، وحبذا لو أبيحت ترقية ضباط الصف إلى ضباط عاملين بالجيش ، وإن ذلك يفتح أبواب الأمل أمام الجنود ، ويشعر الضباط بأن أنفار اليوم قد يكونون زملاء الغد مما يدعم الأخوة الواجبة بين المواطنين كافة من جنود وضباط .

هل للفضائل أسباب اقتصادية ؟

أَجِدُنِي بحاجة إلى أن أؤكد مرة أخرى قيمة الفطرة الإنسانية ، ومبلغ الكمال الذى تستطيع معنوياتها أن تصل إليه ، مهما أُحيطت بالعوامل المضادة لها .

فقد تحتفظ الجذوة بحرارتها واشتعالها أمداً طويلاً بين أكوام التراب البارد ! !

وقد تنمو فى جوف الصحراء ، أشجار تختزن فى أوراقها الماء والخضرة والرىّ !

وإقرار هذه الحقائق لا ينكر حقائق أخرى ، تعلن أن الفضائل الإنسانية والقومية تفتقر فى نموها إلى موارد دافقة ، من أمواج الحياة الغنية الكريمة العزيزة ، وأن هذه الفضائل قد تذوى وتنتهى إذا لم تجد هذه الأمداد المتتابعة التى تمدها بالغذاء والنماء .

ومما هو جدير بالذكر : أن النبى صلوات الله عليه وسلامه كان يستعيذ بالله كثيراً من الديون وشرورها ، وقد سُمِع ذلك منه مراراً ، حتى سئل فى ذلك فأجاب بأن المَدِينَ قد تُلجئه قلة الوفاء إلى الكذب .

فإذا كانت بعض أحوال الدنيا توحى بالكذب ، فبعضها الآخر يوحى بالصدق — لامراء — ونريد نحن أن ننظر إلى بيئتنا لنرى ، أتوحى بالفضائل وتنشىء النفوس عليها ؟

وليس فيما شرحناه فى الفصل السابق غناء عن متابعة النظر فى هذا المعنى فنحن نقصد — هنا — بالفضائل المستوحاة من البيئة ، تلك الفضائل الإيجابية الجليلة ، من إنسانية عامة ، أو من قومية خاصة ! .

تلك التى لا تقوم على ظهر الأرض حضارة عظيمة إلا فى ظلها .

وفقدان العدالة الاجتماعية فى أنحاء هذا الوادى جعل الناس يخرجون من -

ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة ، لاعمل لهم إلا ماتوارثوه من بذر الحب وانتظار الثمار من الرب كما يقولون .

فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم ، لم يجعل الفقر لهم من دونها ستراً . بل طلعت على قوم لا يكادون يفقهون قولا .

وكان لزاماً — فى هذه الحياة الراكدة الجامدة — أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلى ، هبط بقوامهم الأدبية ، هبوطَه بقوامهم المادية .

ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم ، لكى يستمر نماؤه ويتم كماله ، ذلك أنه — كثيراً — ماتجد الرجل فى سن الخمسين ، وعقله دون هذه السن بكثير ، فتجد له تفكير الأطفال ، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة .

والسر فى ذلك بَيِّن ، فى حين وَجَد هذا الرجلُ حاجاتِه الضرورية لجسمه من طعام وشراب ، فَقَد حاجاته الضرورية لعقله ، من علوم وثقافات وآداب .

وقد يكون المعدن العقلى لهذا الرجل نفيساً ، ولكنه كالأرض الطيبة التربة ، لم تجد ماء ولا بذراً ، فلم تجد فيها حياة ولا ازدهاراً .

ومن المحزن أن ننظر إلى كثيرين من أبناء أمتنا ، فنراهم قد أُصيبوا بهذا الشلل العقلى ، والعقم الفكرى ، والهوان الأليم فى إنسانيتهم ، لأنهم حرموا فى طفولتهم ، وفى رجولتهم ، هذا الغذاء العقلى ، الذى لابد منه .

والنقص الأدبى لايحس به صاحبه إحساسَه بالنقص المادى .

بل ربما أحاطت به أحوال تشعره بالكمال والعظمة ، وتهون فى ناظريه القِيَم المعنوية .

ولو أن كل محروم من وسائل المعرفة والفضيلة ، يتألم لذلك ألم الجوعان لفقدان مايزحم معدته من وَقُود ، لَاستراح الناس واسترحنا من لَوْثات الأغبياء والأدعياء !!

لكن المجتمع العام — بعكس الفرد — شديد التأثر والإحساس بمدى الكمال المعنوى لمن ينتمون إليه ويعيشون فيه .

فمن الناحية الدينية ، يحتاج الإيمان إلى الكمال العقلى . والله عز وجل يقول : « اتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » .

ومن الناحية الدنيوية ، تقل الفوارق كثيراً بين الإنسان والحيوان ، كلَّما قل عقله ، فيهبط السلوك الإنسانىّ إلى الحضيض بهبوط التفكير .

ونحن أمة أحوج ما تكون إلى العلم الواسع ، لتنتفع به فى دينها ودنياها .

وكيف الطريق إلى ذلك إذا لم تتلاش فوارق الطبقات ، ولم يتلاش معها التظالم الاجتماعى . ثم يبنى المجتمع على أسس من احترام الإنسان ، وتقرير حقوقه ، وتنمية ملكاته وتدعيم فضائله ؟ .. ذلك من الناحية الإنسانية .

أمَّا من الناحية القومية ، فإن فضائل الشعوب الحية ينقصنا — مع الأسف — الكثير منها .

إذ لا بد للشعب الحر من توافر الحمية والأنفة والشجاعة والتضحية ، فأنى ذلك ؟ وللأمية الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء فى تبلُّد المشاعر وضعف الفهم لقضايا الوطن ، وقلة الحماسة العامة لها ، وعدم انعقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق السياسى بين المحترفين القدامى من الساسة العجائز ، الذين تقدموا الصفوف ، لأن الغاصبين أرادوا لهم أن يتقدموها .

والهواة الجدد ممن أغرتهم المنافع ، وظنوا أن فى الاشتغال بالسياسة كسباً لأشخاصهم ، وليس واجباً يفرضه عليهم هذا الوطن المغلوب على أمره ! .

ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة ، لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية فى بلادنا .

فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذى أمات الإحساس -

الصحيح فى جسم الأمة ، فهى تحاول النهوض ، فيطاوعها بعض أطرافها ؛ ويستعصى البعض الآخر !

وهى تنظر بعين ، فيها بوادر الغضب ، وفيها فتور النوم ! وهى تفتح فمها فلا تدرى : ألتقول الكلمة الفاصلة ؟ أم لتتثاءب ، أم لتخلط بين الأمرين !

وعندما أعلن الطلبة غضبتهم[١] الأخيرة لمستقبل بلادهم النائم ، كان على (القهوات) رجال يطالعون أنباء الطلبة كما يطالعون أنباء الصين ، ورجال يخرجون من الأزقة القذرة إلى أعمالهم المتادة وهم يضحكون أو يتضاحكون ، ورجال آخرون فى صميم الريف يمسكون بأذيال البقر وينطلقون خفافاً أو ثقالاً إلى الحقول ، ليقضوا سحابة النهار ، ثم يعودون مع الليل الهادئ ، إلى القرية النائمة أبداً .

ذلك كله ... لأن الوعى الاجتماعى ضعيف عندنا ، والفضائل القومية — تبعاً لذلك — فاترة مريضة .

ولكيما تقوى وتصح ، يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة دعائم اقتصادية ، يجب تعرفها وتقريبها .
وَلْنَضْرِبِ المثل ببعض الفضائل المطلوبة ، لنرى مصداق ما نقول :

عزة النفس :

فضيلة يطلبها الدين ، ويجعلها من خصائص المؤمنين ، وينكرها على الفاسدين ، فى أقوالهم وأعمالهم .

---

(١) فى مأساة (كوبرى عباس) المشهورة ، حيث قتل بضع عشرات من الطلاب على عهد الأقلية الحاكمة من رجال الحزب السعدى . وقد انتهى هذا العدوان الوحشى بسقوط الوزارة فحسب (!) .

قال الله تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

ولكن مجتمعات البشر ، لم تقم على هذا الأساس ، وحاولت أن تجعل للقلة والكثرة دخلاً فى العزة والذلة . وقديماً قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصا وإنما العـزّةُ للكاثر

والقرآن الكريم نفسه ، يصف المؤمنين قبل موقعة (بدر) بأنهم كانوا أذلة إذ يقول : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ » .

ويمتنّ عليهم بأنهم بهذا النصر انتقلوا من حال إلى حال ، وأنهم اشتدوا به ماديًّا وأدبيًّا ، معنويًّا واقتصاديًّا :

« وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ ، وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ».

ويمكنك أن تنظر إلى أحوال رقيق الأرض من الفلاحين . وإلى أشباههم من الطبقات البائسة . أتجد لديهم عزة نفسية ؟ وإذا وجدت شيئاً من ذلك ، أتستطيع القول : بأن ذلك يشبه عزة الموظفين والتجار والمـلّاك وغيرهم ، من أصحاب الأوضاع الاقتصادية الكريمة ؟ ؟ لا . .

فحاجة النفس الإنسانية إلى سناد مادى ، لتقوى به وتعتز ، أمرٌ لا بد منه ، وإلا فسيدركها ذل الاحتياج وهوان الشأن فى البيئة الفقيرة الحقيرة !

ولولا الكفاح المتتابع الجادّ ، الذى قام — ولم يزل يقوم به العلم والإيمان — لاَستَبَدَّ فى الأرض سلطان الكثرة فى المال والجاه ، ولَأُنكر على الطبقات الفقيرة كل شرف وتقدم .

فلْنَغْرِسِ العزة فى النفوس — إذا شئنا — بالدعايات الواسعة والهتافات المدوية .

ولكن لن يبقى بعد ذلك ، إلا أثر المكان الذى ينبب العزة ، والمجتمع الذى يمنح كافة الطبقات نصيبها المفروض لها ، من الإباء والتطلع والاعتزاز .

وقد يعقل الفقر الفتى دون همه   وقد كان لولا الفقر طَلَّاعَ أَنْجُدِ

ومن المؤلم أن الذل اختلط بالدين الآن اختلاطاً سمجاً ، فكثيراً ما كنت أستمع إلى هذه الكلمة (رضيت بما قسم الله لى) من أفواه الفلاحين المنكوبين فى أرزاقهم ، ومن أفواه العمال المضيمين فى أجورهم . ومن أمثال هؤلاء وأولئك ، ممن حظهم فى الحياة ضئيل ، ونصيبهم من الدنيا قليل !

فكنت — أول الأمر — مخدوعاً بما تشير إليه الكلمة من إيمان وتسليم ، حتى تبينت أخيراً أن للكلمة الشائعة دلالة أخرى ، قد تكون أقرب إلى الواقع .

فرجعت أتساءل . . ترى هل هذا رضاء بالقدر فى أشد أحواله ، أم هو حرص على الحياة فى أحط صورها ؟ ولم يظل تساؤلى كثيراً ، فقد عرفت وجه الحق .

إن المسألة لاتعدو الاستمساك بأهداب الحياة ، ولو كانت فى الدرك الأسفل من الشقاء . والاستنامة فى مهاد الذل ، ولو كان مليئاً بالأشواك والأقذار .

ترى هذا كله ثاوياً فى قرارات النفوس المريضة ، تمكن له التعاليم الضالة ، والفكر الخاطئة ، فإذا به يظهر على الألسنة كأنه تسبيح وتحميد ، ولكنه فى الحقيقة الركون إلى معيشة العبيد !

وقد عاب القرآن قوماً ، لأنهم يرضون بالحياة على أى صورها فقال : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ . . . يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » .

إن عدم الفرار من الحياة القذرة — ولو إلى الموت — مهانة نفسية ، لفّت فى سوادها أكثر أقطار الشرق الإسلامى .

والغريب أن يكون هذا باسم الإيمان بالله ، والتسليم للقدر ، مع أن التجارب علمتنا : أن الجرأة على الموت فضيلة لا تظهر إلا فى الشعوب الحية والأمم القوية .

وضريبة الدم التى نسمع عنها ! لا يدفعها إلا أبناء هذه الأمم العظيمة .

وقد كان العرب الأوائل يحرصون على الموت ، أكثر مما يحرص أعداؤهم على الحياة . .

أما الحياة السقيمة ، فهم أبعد الناس عن الرضا بها ، أو الهدوء فى كنفها .

فأين من هذا أقوام يطوون بطونهم على خشاش الأرض ثم لا يرضون بهذا فحسب ، بل يقولون : (اللهم أَدِمْهَا نعْمة ، واحفظها من الزوال) .

أليس زوال هؤلاء نعمة تستريح بها الحياة ؟ .

قال ابن المقفع على لسان « كليلة ودمنة » :

إن مِنَ الناسِ مَنْ لا مُرُوءَةَ له ؛ وهم الذينَ يفرَحونَ بالقليل وَيَرْضَوْنَ بالدُّون ؛ كالكلب الذى يُصِيبُ عظماً يابساً فيفرحُ به .

وأما أهلُ الفضل والمُروءَةِ ، فلا يُقْنِعُهُمْ القليل ، ولا يَرضوْنَ به ، دونَ إن تَسْمُوَ به نفوسُهم إلى ما همْ أهلٌ لَهُ ، وهو أيضاً لهم أهلٌ ؛ كالأسدِ الذى يفترسُ الأرْنبَ ، فإذا رأى البعيرَ تركَها وطلبَ البعيرَ .

ألا تَرَى أنَّ الكلْبَ يُبَصْبِصُ بذَنَبِهِ . حتى تُرْمَى له الكِسرةُ .

إنَّ الفيلَ المعترفَ بفضله وقوَّتهِ إذا قدِّم إليه عَلَفُهُ لا يعْتَلِفُهُ حتى يُمْسحَ وُيتملّق له .

فمَنْ عاشَ ذا مالٍ وكان ذا فضلٍ وإفضالٍ على أهلهِ وإخوانِه ، فهوَ — وإنْ قَلَّ عمره — طويلُ العمر .

ومنْ كانَ فى عيشة ضيقٍ وقلةٍ وإمساكٍ على نفسهِ وذَويه فالمقْبُور أحيا منه ؛ وَمنْ عمِلَ لبطنه وقنِع ، وتركَ ما سِوى ذلكَ عُدَّ مِنَ البهائم .

قال كليلةُ : قد فهمتُ ماقلتَ ، فراجعْ عقلك ، واعلم أنّ لِـكل إنسانٍ منزِلة وقَدْراً .

فإنْ كان فى منزلته التى هُوَ فيها مُتماسكا كان حقيقاً أنْ يقْنَع . ولَيْسَ لنا مِنَ المنزلةِ ما يحُطُّ حالَنَا التى نحن عليها .

قالَ دمنة : إن المنازلَ متنازعةٌ مشتركةٌ على قدر المروءة .

فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعةِ ، ومن لامروءةَ له ، يحطُّ نفسَه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة .

وإن الارتفاعَ إلى المنزلة الشريفة شديدٌ ، والانحطاطَ مِنها هَيِّن ، كالحجر الثقيل : رفعُـه من الأرضِ إلى العاتق عَسِر ، ووضعهُ إلى الأرض هَيِّنٌ .

فنحن أحقُّ أن نرومَ مافوقَنا من المنازل ، وأن نلْتَمِس ذلك بمروءتنا .

التعلم :

فضيلة طالما أطنبَ الدِّين فى مدحها ، حتى جعل منزلة العالم بين الْعُبَّاد كمنزلة البدر بين سائر الـكواكب ! وحتى جعل فضل العالم ، تشهد به الطيور فى الجو ، والحيتان فى البحر !

ولـكن بمقدار مامدح الدين العلم ، بمقدار ماأقدم الناس عندنا على الجهل .

فما حَوَّلتهم نصائحه بدوراً ولا شموعاً ، ولاشهد لهم بالفضل طير ولا دابة ، بل قَلَّتْ نسبة المتعلمين ، وفحشت نسبة الجهال .

ومنذ عشرين عاما ، والمصلحون يحاربون هذه الروح المفكرة ، حتى استطاعوا أن يرفعوا نسبة المتعلمين إلى ٢٠٪ ، من بينهم من يحسن كتابة اسمه فقط ، ومن يحسن قراءة الصحف بعد إعلان الحرب على علماء اللغة جميعاً .

وبديهى أن تعميم التعليم بالنصح والإرشاد والترغيب ، أمر لا طائل تحته .

فإن الأمر يحتاج إلى إلزام عام ، تُسَخَّر فيه قوى الدولة ومواردها !

ويجب أن تلين أنظمة الأمة الاقتصادية والاجتماعية ، تبعاً لذلك ، حتى لا يبقى فى البلاد جاهل واحد . وإلا فلا قيمة مع الجهل لدين يبقى لنا ، أو لدنيا نحيا فيها .

إن احتكار العلم كان — قديماً — إحدى الدعائم التى يقوم عليها نظام الطبقات .

فكان الكهان والرهبان ، ومن على شاكلتهم يمنعون المعارف القليلة التى بين أيديهم أن تصل إلى غيرهم ، حتى لا يشاركوا فى القداسة والكبرياء المفروضين لطبقتهم .

وقد أشرنا آنفاً إلى أن هناك أورستقراطية علمية ، تُتمِّم زميلتها المادية ، ويعانى الشعب الأمرّين فى ظلهما .

ولا فكاك من هذه القيود المظلمة إلا بإشاعة العلم ، وتحطيم الحواجز المجرمة ، التى تحرم الجمهور من أن يَعُبَّ منه ، حتى يَرْتَوِىَ ويكتفى ، إن كان من العلم ارتواء أو اكتفاء .

وينبغى أن نجزم بأن العلة الأولى فى فساد التديُّن وتأخُّر أصحابه ، هى الجهل الثقيل ، الذى ضيق آفاق الحياة فى أعينهم ، وأفسد الذوق الإنسانى فى فطرتهم ، وأوقفهم أمام نصوص الدين وهم لا يفقهون .

ذلك لأن القرآن نفسه يقول :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ » .

فكيف بعد ذلك يوجد مع الجهل دين ؟ وكيف يعم الدين القلوب ، إذا لم يعم العلم العقول ؟ وكيف يتم هذا أو ذاك ، إلا فى حراسة العدل الاجتماعى الصحيح ؟

حسن الخلق :

فضيلة إنسانية ، حض عليها الدين ، وجعلها ثمرةً لكثير من العبادات التي أمر بها ، واعتبرها أمارة الكمال البشرى ، فى أرقى مراتبه ، حتى لم يوصف النبي صلوات الله وسلامه عليه إلا بها « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » فى معرض مدحه وبيان فضله .

والمجتمع الذى يتوفر حسن الخلق فى معاملاته ، هو هدف الرسالات العظيمة ، من دينية ودنيوية .

ونحن إذا حلَّلْنَا سوء الخلق ، وأرجعناه إلى عناصره التى يتكون منها كما يتكوّن الماء من عنصريه المعروفين ، لوجَدناه مزيجاً من جهل وفقر ، أو جهل ومرض ، أو جهل وترف .

وإن خلو المجتمع من هذه العناصر ، يتبعه — غالباً — خلوه من شراسة الأخلاق وضعة السلوك !!

وإن المجتمعات التى يروقك شرف معاملاتها ، وجمال آدابها ، وصدق اتجاهاتها ، هى هذه المجتمعات ، التى تأصَّل فيها العلم ، وسادتها العافية ، وتقاربت فيها العقول ، وتساوت فيها الحقوق ، وأمكن فيها التفاهم والتعارف ، وتجاوبت فيها العواطف .

حتى لتكاد التحية العابرة فى الطريق أو فى الترام تؤسس حُبًّا مَكِيناً بين أصحابها .

أما هنا ، فالحرمان ملأ النفوس بالبغضاء ، والتفاوت البالغ بين الثقافات والمشارب والمنافع ، جعل الناس يتنفسون فى جَوٍّ من الشراسة والتناكر .

وفى البيت أو فى الشارع ، فى القرية ، أو فى المدينة . يكون من أيسر الأمور ، أن تتحول المناقشات التافهة ، إلى معارك حامية .

ثم تبحث عن حسن الخلق ، فلا تجد إلا قشرة خفيفة ، وراءها جفاء غليظ ! .

ولا عجب ، فهذه النتيجة هى آخر ما يمكن للدين أن يصل إليه بالكلام .

أما إذا أردنا النتائج العملية العظيمة ، فلها طريق أخرى .

وستجد فى هذه الطريق أن حسن الخلق ثمرة دانية القطوف ، فى كل مجتمع ذكى غنى قوى .

يصل الدين إلى تحقيق أغراضه فيه ، بحسن توزيع العلم ، وحسن توزيع المال .

أما قبل ذلك ، فلا موضع لأمل ، ولا جدوى فى عمل .

ذلك لأن الخلق ليس شيئاً يقول له الخطيب المجيد : كن فيكون ! بل هو أثر تفاعل النفس مع البيئة فى البيت والشارع والعمل والمدرسة وغير ذلك .

فيجب تكييف هذه الأشياء كلها ، لتعين على تحقيق ما نريد .

شرق جديد :

من الكلمات التى كنت أستمع إليها وأظنها من الحقائق المسلمة ، أن الشرق موطن الروحانيات ، وملهم العالم مُثُلَه العليا ، وموئل الفضائل الجليلة ، إن نَبَتْ بها دار أو تنكرت لها أقطار !! وأن ربوع الشرق أُتخمت بهذه النظرات الإنسانية العليا .

حتى صاح « أمين الريحانى » صيحة الوجل من كثرتها ، يريد أن يستبدل بها بعض الإنتاج المادى الذى زخر به الغرب فهو يقول : « أنا الشرق عندى فلسفات ! من يبيعنى بها دبابات وطائرات » .

هذه الكلمة الناطقة بأن الشرق وطن الفلسفات الروحية المجردة ! وخصم الأفكار المادية المحضة هى — عندى — موضع نظر الآن ، ويجب أن نعرضها على ميزان النقد ، لنعرف حقيقة ما تنطوى عليه ، ولنعرف — كذلك —

قيمة ما لدينا وقيمة ما لدى غيرنا ، فلا نضل ولا نخزى ! !

لقد بحثت عن هذه الروحانية المزعومة فى مظانها المختلفة ، فلم أجد لها أثراً يذكر .

أتجدها فى حياة الكبراء الشرقيين ؟ لا .

إن باشوات هذا الوادى الخصب ، وأشياخ العرب فى جزيرتهم القحلة ، ومهراجات الهند ، فى أرضهم المبهمة ، لا يدرون شيئا فى معايشهم المفعمة بالنعمة والثراء عن الروحانية وفلسفتها !! .

بل إن مقابح المادية المغرقة ومساوئ الانحباس فى بهيمية الحياة الدنيا ، لا تجد لها مجالا أوسع ، مما تجده فى هذه الطبقات المتكبرة .

أين تجد هذه الروحانية ؟ أبين طوائف الفقراء المحرومين ؟؟ !!

أحسبك لن تتصور السجن الذى ضم هؤلاء البائسين برجاً عاجياً ، أو تتخيل ابتعادهم عن الطيبات والمباهج ، زهداً مقصوداً ، وتعالياً محموداً .

إنما هى فوضى الأوضاع وفلسفة الحرمان ، وهذه لا تساوى فى « سوق النقد » شيئاً نشترى به من الغرب دبابات ولا هراوات ، وما تقدم الغرب إلا يوم مشى فى طريق بعض تربه الموطوء بالأقدام ، هذه الفلسفات البائسة !! .

ولقد مرت الروحانية الشرقية بتجربة قاسية ، يوم خرس لسان كاهنها الأكبر « غاندى » عن استنكار المذابح الطائفية ، التى التهمت ألوف الأطفال والنساء والرجال ، غداة استقر الأمر على تقسيم الهند إلى شطرين .

وكان ذلك على غير رغبة المهاتما صاحب فلسفة السلام العام والبعد عن أسباب الخصام !

خرست هذه الفلسفة ، بعد أن ثرثرت قليلا ، لتتقن تمثيل دورها ، فما أجداها هذا الخداع إلا أن كشف نيتها ، وفضح طويتها ، فلا روحانية ، ولا روحانيين .

إن توازن الأجسام إلى الطعام والشراب والنساء ، أخذت صورتها الحالمة ، فى ألف ليلة وليلة ! وأخذت صورتها الواقعة فى قصور الواجدين الفاسدين ، وتميز الشرق ، بأن بعض كبرائه يوزن بالذهب والماس ، ويبعثرهما من غير حسيب !

نعم قد يوصف الشرق بالروحانية ، لأنه مهبط الديانات ، ومطلع أشعتها ، ومورث صحائفها المطهرة للعالمين .

بَيْدَ أن حالة الديانات الآن فى الشرق ، أو فى الغرب ، لا تسر .

وعاطفة التدين تواجه — فى هذه الآونة — أزمات خانقة ، والروحانية التى تدعو إليها الأديان ، تحتاج إلى بيان ينفى عنها ما لازمها ، من تشويه وتحريف على مر العصور .

والإسلام — وهو الدين الجامع لما قبله ، المانع لما بعده — واقع تحت سلطان حفنة من الفراعنة والقوارين ، جعلوا انتفاع الناس منه محدوداً جدًّا .

فأية روحانية تبقى فى الشرق بعد ذلك ؟ لا شيء !

الحقيقة ، أن الإنسان فى الشرق ، هو نفسه إنسان الغرب ، وأن الروحية والمادية هنا أو هناك ، تخضع لعناصر البيئة وأحوال المجتمع ، وهى عناصر وأحوال يمكن الهيمنة عليها ، والتصرف فيها ، وتكوين معادلات « جبرية » تنتج المادية فى الشرق ، أو الروحانية فى الغرب ، إن شئت .. !

ليس تفكيراً مادياً :

يتوهم ذوو الآفاق المغلقة ، أن إدخال العوامل الاقتصادية فى الرذائل والفضائل ، جنوح إلى التفكير الشيوعى القائم على النظرة المادية المحضة للحياة ! واستهانة بالقوى الروحية السامية ، التى يجب التعويل عليها فى عصمة الإنسان من السقوط فى مهاوى الإثم والعصيان .

وهذا التوهم خاطىء .

فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحانى ، فى تدعيم معنويات الإنسان ، وحفظ كيان الأمم .

بَيْدَ أن ذلك لا يعنى إغفال المشاهد الملموس ، من تولُّد الرذائل الخطيرة فى المجتمعات ، المصابة بالعَوْز والاحتياج ! !

بل إن الاضطراب الاقتصادى ، فى أحوال كثيرة جداً قد يكون السبب الأوحد فى نشوء الرذيلة وشيوعها .

وقد بيَّن ذلك نبى الإسلام صلوات الله عليه وسلامه فى قصة رمزية صغيرة .

فمن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال رجل لأتصدقنَّ بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تُصُدِّق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ! لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ! فأصبحوا يتحدثون : تُصُدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ؟ لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غَنِيٍّ ، فأصبحوا يتحدثون : تُصُدِّق الليلة على غنى . فقال الرجل : اللهم لك الحمد على سارق ، وزانية ، وغنىّ ! فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته . وأما الزانية ، فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغنى فلعله يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ...

هذه القصة تشير إلى أن الفقر قد يُلْجىء إلى السرقة والزنا . وأن علاج هذه الجرائم ، يكون بمحو العلل التى تمخضت عنها .

وليس القول بهذا شيوعية فى التفكير ، ولا مادية فى الحياة .

وقد ينشأ الاضطراب الخلقى عن الاضطراب الاقتصادى ، ثم تبقى النفس صريعة له أمداً طويلا ، حتى يتغلغل فيها وتغور جذوره فى طبيعتها .

فإذا انزاحت الأسباب الاقتصادية المحرجة ، بقيت النفس على الخلال الأثيمة التى اكتسبتها ، فلا تتخلى عنها ، إلا بعد جهاد طويل !!

وهذا إن دل على شيء فعلى ضرورة اليقظة الكاملة للعوامل المستقرة فى البيئة ، حتى لاتفقد النفس طهارتها إلى الأبد بسببها ، وتصبح النصائح والإرشادات عديمة الجدوى ، أو قليلة الغناء .

إن الاضطراب الاقتصادى ، يورث الأخلاق اضطراباً شنيعاً . بل يجعل الأجيال المتعاقبة تتوارث أنواعاً شتّى ، من أخبث الأمراض النفسية ، والآفات العقلية الوخيمة النتائج ، البعيدة الأخطار .

وكم تظن عمق الْفَجْوَةِ ، بين بيوت العبادة ، ونواحى المجتمع ، إذا كانت هذه توحى إلى الخير بأقوالها ، وهذه توحى إلى الشر بأحوالها ؟

إن العلاقة بين الاثنين ، هى علاقة الحقيقة بالخيال ! !

فبينما القول البليغ يهتف بالناس فى المساجد : أَنْ فِرُّوا إلى الله ! إذا بالناس مثقلون فى المجتمع بقيودٍ من الحاجة الْمُلِحَّة ، تحبسهم فى سجون الضرورات المذلة ، والعذاب الأليم ، فلايستطيعون عنها فراراً . وَوَدُّوا لو يستطيعون ! !

والحديث الذى يلمح فيه نبى الإسلام : إلى أن المعاصى قد توقع فيها الضوائقُ المالية ، حديث يضع أيدينا على طَرَفِ الحقيقة ، التى بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة .

الاستعمار الداخلى يمهد للاستعمار الخارجى

يقول أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه :

(ألا . لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم) .

ويروى عنه كذلك هذا القول : (والله ما أحدٌ أحق بهذا المال من أحد ، والله لئن عشت لهم ليَصِلَنَّ الراعِيَ فى صنعاء حظُّه من هذا المال) .

وهذا الكلام الذى قاله عمر ، إن كان من عند نفسه ، فَنِعِمَّا هو ! وحدير به أن يكون دينا للناس ، إذ لا قيام لدين ، أو خلق ، إلا فى ظله كما أوضحنا .

وإن كان من وحى الدين الذى يعتنقه — وهو ما نعتقده — فلا موضع الخلاف فى فهم دلالته ، وتحقيق أغراضه .

فهو يتضمن دستوراً خطيراً من أهم دساتير الحرية الاجتماعية والاقتصادية ، وحصانة قوية من الحصانات التى تتوفر للشعوب ، فتقيها أوزار الظلم الاجتماعى ، وظلماء الاستعمار الداخلى .

ونحن أحوج الناس إلى فهم هذه الحقائق ، جملة وتفصيلا .

نحن الذين نسينا ذلك دهراً ، فوقعنا فى مخالب المستعمرين الباطشة .

إن الاستعمار يُبْقِى للناس صُوَرَ العبادات الميتة ، إذ لا غناء لهم فيها ، ولا خطر عليه منها ، ويساعد على جعل الدين مقطوع الصلة بكرامة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية . فالدين — فى نظره — يجب أن يعادى هذه الحقوق المقررة بالفطرة ، أو أن يكون عوناً لمن ينتهكونها ! أو على الأقل ، يجب أن يكون محايداً بإزائهم وإزائها .

أما أن يؤيد الدين هذه الحقوق ، وأن يحض على الفداء بها ، وأن يجعل فى مقدمة الشهداء من يموتون فداء لها ، فلا !

وعلى هذا المبدأ المجرم ، قام الاستعمار الداخلى فى الشرق ، فأسلم الشعوب

لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، للغزاة الأوربيين الذين استولَوْا على كل شيء واستغلوه لمصلحتهم قبل كل شيء .

ثم جاء دور الأحرار في الكفاح . واسترداد ما ضاع ، فمن الغفلة أن ننسى دروس الماضي وَعِبَرِهِ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ولقد لدغتنا المظالم في الداخل ، فسَمَّمَتْ دماءنا ، وهدَّت قوانا ، وسبَّبَتْ لنا هزائم مريرة ، فيجب ألا نمكن لها من العودة أبداً .

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا » .

الدين والاستعمار :

للدين مع الاستعمار العالمي ، موقف حاسم ، لا تجد فيه إلا الخصومة الظاهرة والاستنكار البالغ .

فقد وضع الدين معالم ثابتة ، للإخاء الإنساني ، الذي يجب أن يسود بين شعوب الأرض ، إذ رفع من شأن أبناء آدم جميعاً ، وصان لهم كرامتهم ، ونَوَّه بأن بداية خلقهم من ذات الله الكريمة ، وروحه العظيمة ، وأن الله عز وجل ، أسْجَد ملائكته لأبيهم ، ثم خصهم بفنون من المواهب والملكات ، أعْلَتْ شأنهم بين سائر الموجودات :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » .

ولا شك أن الناس يختلفون فيما أوتوا من خصائص نفسية وعقلية .

ولكن لا يسوغ أن يكون هذا الاختلاف باباً إلى التمادي والتناكر ،

بل يجب أن يكون أساساً لتعاون بعيد المدى ، يقف القوىُّ فيه بجانب الضعيف ويأخذ العالِمُ فيه بيد الجاهل ، ويفيض المكثر فيه على المقل .

أما أن يأكل القوى الضعيف ، ويستعلى العالم على الجاهل ، ويستعبد الغنى الفقير ؛ أما أن يشعر كل ذى فضل من جاه أو مال أو سلطان ، بأن له حق البغى فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم :

فهذا فساد عريض ، وانتكاس بقيمة الإنسان ومنزلته ، وردها إلى قوانين الغابات وطبائع الوحوش ! !

وقد انطبع الاستعمار العالمى بهذا الطابع الأسود من قديم العصور . واحمرّتْ جوانب التاريخ البشرى بدماء الضحايا المسفوكة ، إشباعاً للغرائز الخسيسة ، والمظالم الفادحة .

ولم تتورّع الحضارة الغربية الأخيرة — برغم تقدمها العلمى الهائل — عن الانزلاق فى هذا المنحدر الدنىء .

فهى تقاتل الشعوب المتطامنة إلى حريتها ، وتجتهد فى حرمانها ، من أسباب العلم والقوة والنهوض .

ولا تريد إلا جعل المستعمرات الشاسعة ، التى تضم أكثر من نصف البشر ، حقول استغلال ، واتخاذ أهلها خدما ، يعملون لغيرهم ، ويكدحون لسادتهم المتطفلين الدخلاء .

وقد أتيت الحضارة الأوربية من هذه الناحية ، فلم يزل التنافس الاستعمارى مثار قتال متواصل ، وحروب « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

وقاية :

غير أن الدين الذى يعرف غوائل المرض ، لا يكتفى بالتحذير منه فقط بل يُحَصِّن أبناءه ضده ، ليكونوا بمأمن من فتكه وبطشه .

والحقيقة أن التدين الصحيح عدو الاستعمار الأول . لا يجد الاستعمار عدواً أمضى منه سلاحاً فى محاربته ، واستئصال شأفته .

حَصَّن الدين أبناءه ضد هذا الوباء وجعلهم — لو آمنوا بالله حقّاً — أقرب الناس إلى التمتع بحرياتهم المطلقة ، وحقوقهم الكاملة ، وأشد الناس رفضاً للضَّيْم ، وثوراناً عليه ! !

وأول ما يؤسسه الدين لضمان ذلك المسلك ؛ تكوين البيئة الحرة فى الأمة تكويناً بَيِّن المعالم ، واضح الخطوط .

ولإيجاد هذه البيئة ، يجب توفر عناصر ثلاثة هامة :

(١) الكرامة الفردية : وتقوم على حفظ حقوق الإنسان ، وتحريم دمه وماله وعرضه ؛ والارتفاع بها إلى مرتبة القداسة ، حتى إن النبي اعتبر حرمة المؤمن أقدس من حرمة الكعبة ، التى يتَّجه إليها المسلمون فى صلواتهم ، وفسَّر حرمته ، بأنها حرمة دمه وماله وعرضه .

ثم حفظ للفرد شخصيته المعنوية — بعد المحافظة على شخصيته المادية — فطالبه بعزة النفس ، وأوصاه أن يستمسك بها ، وشرع من العقائد والتعاليم ما يؤكدها ، واستنكر أن تكون القلة المادية سبيلا للنَّيْل من كرامة إنسان أو إذلال جانبه :

وفى ذلك يسوق القرآن قصة أقوام ارتكبوا هذه المحاولة :

« هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا

وَلِلّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْض . وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وقد استقصى الدين أسباب هـذه الكرامة الفرديه ، حتى إنه لينصح المؤمن الاَّ يُعرِّض نفسه لنوع من الانـكسار والغضاضة ، إذا هو أخذ على نفسه تنفيذ أمر لا يقدر عليه ، ثم ظهر عجزه عنه .

فينصح النبي صلوات الله عليه وسلامه : « لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال يتعرض من البلاء لِمَا لا يُطِيق » ! .

وهذه شدة إحساس بالكرامة الفردية ، وضرورة تدعيمها بالسلوك القويم: « إِيَّاكَ وما يُعْتَذَرُ مِنْهُ » .

(٢) الـكرامة الاجتماعية : وتقوم على المساواة بين الطبقات ، وإقامة الموازين القسط بينها ، وجعل التـكافل المادىِّ والأدبىِّ ، هو الرِّباطَ الذى يجمع شتاتها ، ويركِّز قُواهَا ، فلا تـكون النِّعمة احتكاراً لطائفة ، ويكون الحرمان نصيب أخرى .

إذْ أن هذه التَّعاسة مصدرُ ضعف عام ، ومثار سخط مكتوم ، تجعل أبناء الوطن الواحد لا يتحمَّسُون للدفاع عنه ، ما داموا ليسوا سواءً فى الانتفاع بخيره .

ولأن الأشقياء فى بلادهم ، المتبرمين بأوضاعهم ؛ سيتركون مؤنة الدفاع عنه ، لمن يأكل خيره . وقديماً قال شاعر :

لاَ أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

وهذه الحقيقة ، هى سرُّ الفتور والبرود ، الذى يسود الجماهير فى الأمم المستعمرة أو الشبيهة بالمستعمرة ، فلابد من محاربة الاستعمار الداخلى ، حتى لا يكون

هناك مجالٌ لأىٍّ تدخّل خارجىّ . وحتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد بإزاء أى هجوم يُوَجّه إليها من أعدائها الآخرين ! .

وقد جعل الدين الموازنة بين طبقات الأمة ، وعدم استرقاق واحدة لأخرى ، من حقيقة الإيمان ، وقرنها بواجب العبودية لله وحده :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

ومعنى الربوبية لغير الله هو ما قدّمنا .

فقد كان رجال الدين طبقةً تُتَمِّمُ طبقة المترفين ، وتقاسمها بذخها ، تفتات على جمهور الشعب فى ذلك .

« إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

فوصف القرآن هذه الحال وصفاً صحيحاً مُجرَّداً ، ناعياً على الناس وقوعه منهم وفيهم :

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

(٣) الكرامة السياسية : وتقوم على إيجاد الحكومة المعقولة المعتدلة ، التى يشعر أفرادها ، بأنهم أجراء الشعب وخدامه ، لا سادته وجلادوه .

فإن الحاكم المستبد ، الذى تنتهى تصرفاته بإذلال الشعب ، واحتقار رأيه ، وكَبْتِ رغائبه ، هو الحاكم الذى يمهد تمهيداً واسع النطاق للاستعمار ، ويفتح أبواب البلاد على مصراعيها ، للعدوان الأجنبى .

ومما لا ريب فيه ، أن سياط الحكومة فى الداخل ، توطىء الظهور لقبول السياط من الخارج !

ومتى انحنت القامات مرّةً لمن يريد ذلك من الحكام المجرمين ، انحنت مرة ومرة ، لمن يشتهى ذلك من طغاة المستعمرين .

ومن ثَمّ وضع الدين مبدأ القصاص من الحاكم ، حتى لا يجرؤ على ضرب الناس كلما بدا له .

وقد بدأ النبي (صلوات الله عليه وسلامه) فطبَّقَ المبدأ على نفسه ، حتى تكون منه الأسوة الحسنة .

بينما كان رسول الله يقسم شيئاً إذْ أكبّ عليه رجل — زاحمه وضايقه — فطعنه الرسول بِعُرْجُون كان معه ، فتألم الرجل ؛ فقال له الرسول تعالَ فاسْتَقِدْ مني — اقتص — فقال : بل عفوت يا رسول الله .

ولما كان ظلم الحاكم واستباحته للرعية خطيراً فى نتائجه ، ويعتبر تهديداً لسلامة الدولة ، وإضعافا لكيانها ، وانتقاصاً من قدرتها على المقاومة الصادقة للمعتدين ، فقد أرشد عمر بن الخطاب جمهور المسلمين على عهده إلى حقوقهم كاملة فقال : « إنى لم أبعث عمالى ليضربوا جلودكم ، ولا ليأخذوا أموالكم فمن فُعِلَ به ذلك فلْيَرْفعْهُ إلىّ ليقتص منه » .

فقال عمرو بن العاص — معترضاً — : « لو أن رجلا أدَّب بعض رعيته أتقصَّهُ منه » ؟ !

فقال عمر : « إى والذى نفسى بيده ، أُقصَّهُ منه . وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

وقد طبق عمر رضى الله عنه هذه القاعدة فى حزم ، يدل على بالغ اهتمامه بها ، عندما أراد لذلك المصرى الأبىّ الذى ضربه ابن عمرو بن العاص حاكم مصر ، أن يقتصّ من عمرو نفسه .

وقال كلمته الخالدة التى يزهى بها التاريخ : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وكتب عَدِىٌّ بن أرْطأة إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامل له :

— أما بعد — فإن أُناساً قِبَلنا لا يُؤَدُّون ما عليهم من الخراج ، حتى يمسهم شيء من العذاب ؟ .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فالعجب كلّ العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر ، كأنى جُنَّةٌ لك من عذاب الله ، وكأنّ رضاى ينجيك من سخط الله ! — إذا أتاك كتابى هذا ، فمن أعطاك ما قِبَلهُ عَفْواً ، وإلاَّ فأحلفه فوالله لأَنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إلىَّ من أن ألقاه بعذابهم والسلام . .

وبهذه الوصاة رفض الخليفة الراشد مبدأ الضغط على الجمهور ، وإهانته حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه .

فهل تعرف ذلك حكومات شرقية كثيرة ؟ . .

وروى أن قوما من الكلاعيين ، سُرِقَ لهم متاع ، فاتهموا أناساً من الحاكة فأتوا بهم النعمان بن بشير رضى الله عنه ، فحبسهم أياما ، ثم خلى سبيلهم .

فأتَوا النعمان وقالوا له : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان ؟ فقال النعمان ما شئتم ؟ إن شئتم ضربتهم ، فإن خرج متاعكم فذاك ، وإلاَّ أخذت لهم من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم .

فقالوا : هذا حكمك ؟ فقال : هذا حكم الله ورسوله . .

وبهذا رفض الصحابى الجليل مبدأ تعذيب المتهمين ، لحملهم على الاعتراف .

فهل تجد من هذه الأمثلة وغيرها شيئاً يُعين الأمراء والولاة على الاستهانة بحقوق الناس وحرياتهم ؟ . .

ومع هذا الهدى الواضح ، فى تقرير الكرامة السياسية ، فقد نُكِبَ الشرق بحكوماتٍ قصمتْ ظهره من طُول ما أهانَتْه وأذاقَتْهُ الهوان ومن طول ما ادَّعَى أصحابها زوراً ، وانتفخوا غروراً ، فضاعوا وأضاعوا ، وضلوا وأضلوا .

ولأَنْقُلْ هنا ، فصْلا كاملا لمؤلف « جزيرة العرب تتهم حكامها » .
يتبين منه القارئُ حقيقتين عجيبتين فى الأحوال التى تسود هذه البلاد « الإسلامية » ! ! !

أثر النزعة الطائفية فى سياسة الحكومة :

من رأى النَّجدِىَّ عند ما يتولى إمارة مقاطعة فى الحجاز ، أو الزيدىّ حين يصبح عاملا فى تهامة اليمن ، أو المناطق المأهولة بالشافعية .

من رأى ذلك توهم نفسه أمام أمير من أمراء الفاشست حينما يقدم إلى إحدى المستعمرات حاكما عليها ، تداخله العزة والكبرياء ، ويستولى عليه الزهو والخيلاء ، لأنه يشعر أن القوم الذين وَلِىَ أمرهم ، دونه شرفا ، وأقل منه رفعة .

ليس من حق واحد منهم أن يصبح أمير مقاطعة ، أو والى منطقة وإنما لهم الحق فى الوظائف الصغيرة ، يُسْنِدها إليهم العنصر السيد : النجدى أو الزيدى .

وقد حاولت أن أعثر فى المملكة السعودية ، على أمير إقليم أو ناحية حجازى ، فلم أجد !

وكذلك أجهدت نفسى فى اليمن ، بغية العثور على عامل مقاطعة شافعى ، فلم أظفر به .

وألفَيْتُ جميع الأمراء والوزراء ، والموظفين الإداريين فى المملكة السعودية ، من النجديين ، أو من صنائعهم الذين يستلحقونهم من الأقطار الأخرى .

وليس للحجازيين حظٌّ ، فى تَسَنُّم مناصب الإمارة ، أو الوزارة ، مع أنهم أوفر ثقافة من النجديين ، وأقدر على الأعمال الإدارية التى تتطلب العلم والخبرة .

وفى اليمن تنحصر وظائف العمالة والوزارة والإمارة ، فى أيدى الزيديين ، ويحرم منها الشافعيون والإسماعيليون ، حِرماناً تاما .

وقد لاحظت نفس الشيء فى عُمَان ، إذ يحتكر الأباضِيّة جميع الوظائف الإدارية فى الحكومة ، دون أن يسمحوا للسنيين بالمشاركة فى شيء منها .

وقد اتصلت بالرأى العام النجدى ، والزيدى ، والأباضى ، وتتبَّعْتُ اتجاه آراء العامة والخاصة منهم ، لِأَقِفَ على مدى مبلغ هذه السياسة فى نفوسهم ، ومقدار نصيبها من عقائدهم ، فخرجت بنتيجة واحدة :

هى أن النجديين والزيديين والأباضيين ، متفقون فى المبدأ والغاية ، نحو الطوائف التى سادوها .

فالنجديون لا يفرقون بين الحجاز وبين مستعمرة معاديةٍ فتحوها عَنْوةً ، ولهم — وحدهم — الحق ، فى أن يستغلوا جميع مرافقها لمصلحتهم الخاصة .

وعلى أبناء الحجاز أن يستسلموا لما يفرض عليهم ، وليس لهم أن يطمعوا فى مساواة النجدى .

وكذلك يجب على الإحسائيين الشيعة ، أن يكون موقفهم مثل موقف الحجازيين تجاه الشعب الفاتح النجدى .

وعين هذه السياسة ، يُطبِّقها الزيديون فى اليمن على الشافعيين والإسماعيليين .

وتشعر هذه الطوائف الثلاث الغالبة ، شعوراً أكيدا ، أنها مكروهة كُرْهًا عميقا لَدَى الطوائف المغلوبة ، التى تتحيَّنُ الْفُرَصَ لطردها من بلادها ، والإفلات من سيطرتها .

لذلك عمدت إلى إقصائها عن تولى المناصب العالية ، وراقبت — بيقظة وصراحة — حركات مفكريها ونواياهم .

فضربت عليها بِيَدٍ من حديد ، وتناولتها بقسوة وشدة ، وأخذت على التهمة والظنة وبطشت بالبرىء على حساب المسىء ، وجردت سيف الإرهاب

على الرقاب ، حتى ذلّ الشعب واستخذى ، وقتله الرعب من بطش الحكومات ، والخوف من غضبها .

وكان من جراء ذلك ، أن برزت سياسة الرهائن الشنيعة فى اليمن ، واتسع نطاقها اتساعاً ، لم يشهد له التاريخ مثيلا ، فى كل أدواره .

وإذا حاولنا دراسة هذه السياسة فى العالم ، للمقارنة بينها وبين ما هو جار فى اليمن اليوم ، داخَلَنَا الهول والفزع من فظاعتها ، وبان لنا أن سياسة الرهائن التى اتّبعها الإسكندر المكدونى مع الفرس ، وبختنصر مع اليهود ، والنازى مع شعوب أوربا ، أقلُّ شرًّا من السياسة التى تطبقها حكومة اليمن على شعبها .

وذلك أن الأمم التى اتخذت سياسة الارتهان للشعوب المغلوبة ، لم تعمل بها ، باعتبارها سياسة ثابتة لا تبديل لها ، بل جعلتها سياسة وليدة ظروف شاذّة ، تزول بزوالها

ولم تجعلها عامة بين كافة طبقات الشعب المغلوب ، وإنما قصرتها على الذين تتوسم فيهم القدرة على الانتقاض عليها ، والميل إلى مقاومتها .

أما فى اليمن فالأمر خلاف ذلك ، إذ تنفذ سياسة الرهائن الأبدية فى سائر الطبقات وضحاياها : رؤساء العشائر ، وأعيان المدن ، وأشراف الأمة .

وتختار الحكومة من كل بيت رئيس قبيلة ، أو شريف طائفة ، أو عين مدينة ، شخصا تزجُّه فى السجن مُكبّلا فى السلاسل والأغلال ، المدة التى تريدها .

ولا تطلقه حتى يحل محله الشخص الذى تختاره ، من نفس الأسرة .

وتكلف الحكومة أُسَرَ المرتهنين ، بدفع نفقات رهائنهم ، وفق ما تريد ، فيدفعونها لفلذات أكبادهم وأشرافهم .

وقد لاحظت أن الحكومة قد وجدت فى ذلك مجالا للربح والثراء .

فالنفقات التى تطلبها من كل رهينة ، أرفع من مستوى نفقات الأمراء

الأحرار ، مع أن الطعام والملبس الذى تقدمه الحكومة لرهائنها نفس ما يقدم للمساجين المعتادين .

ثم رأت أن من الربح فَرْضَ ضريبة عامة على الشعب ، نفقات للرهائن ، ففعلت .

وقد راعنى عند ما دخلت اليمن منظرُ أحد معتقلات الرهائن فى صعدة ، إذ شاهدت مئات من الرجال والشبان والأحداث ، يرسفون فى الأغلال ، ويحملون جرار الماء ، يملأون بركة كبيرة ، داخِلَ المعتقل ، من بئر مجاورة ، والجند تسوقهم فى حرارة القَيْظ .

وكنت إذ ذاك ذاهبا لزيارة عامل لواء « صعدة » ، فسألت مرافقى عن جرائم هؤلاء المئات من البشر ، لا سيما الأحداث ، فلم يزد جوابه على قوله : « رهائن » .

وكنت أثناء مسيرى إلى العامل ، أفكر فى أمرهم ، وأستغرب أن يكون الشعب اليمنى الطيِّب — الذى سلكت دياره منفرداً آمنا — مُجْرِماً بهذه الصورة الواسعة .

وزاد استغرابى : أن هؤلاء المئات ، لم يظهر على ملامح أحد منهم شىء من سمات الإجرام .

بل تلوح على ملامحهم مخائل النبل والنجابة ، رغم سحابة الذل والانكسار التى تعلوها ، فتكسبهم مِسْحةً من الأسى الصَّامت .

حتى إذا بلغْتُ العامل أفضت معه فى الحديث عن سياسة الرهائن وتاريخها فى اليمن ، فجارانى مجاراة من يتحدث عن شىء بسيط معتاد لا عار فيه .

وقد تحدثت مع بعض الرهائن حديثاً دامعا يذيب الفؤاد ، وأخبرنى أنه نقل حديثا من معتقل « حجة » وقال : إن ذلك المعتقل قد مات فيه —

خلال سنتين — ما ينوف على ثمانمائة شخص ، من رهائن قبيلة « الزرانيق » الشافعية ، التى تسكن منطقة « بيت الفقيه » بتهامة .

ولا يقل عدد الرهائن فى اليمن — اليوم — عن عشرة آلاف شخص ، بينهم عدد غير قليل من الأحداث ، ترتهنهم الحكومة ، نيابة عن آبائهم .

ويبدو لى : أن غاية الحكومة من ارتهان الأحداث ، ترمى إلى طبع الأجيال الجديدة من أعيان الأمة ، على الذل وكسر كرامتهم ، وقتل شعورهم بالعزة ، بعد أن قتلتها فى الكبار .

ولا ريب أن أرواح الفتيان المتوثبة ، وحماسهم المتوقد ، سينهار ، ويتلاشى إذا اصطدموا بالسجن والإهانة سنتين ، وهم فى مثل تلك السن الغضة ، التى لم تتعود تحمل الأهوال ، والثبات لها .

الأمن المزعوم :

يتحدث كثير من الخلق عن الأمن الشامل المنقطع النظير ، الذى تتمع به جزيرة العرب ، وخاصة المملكة السعودية ، ويعدونه مزية عظيمة ، انفردت بها هذه البلاد ، دون بقية بلدان العالم

ولا ريب أن حديث الأمن صحيح لا مرية فيه ، ولا يمكن أن يجد له المرء مثيلا فى أى مملكة من ممالك الدنيا .

غير أن هذا الأمن الذى لم توفق أمريكا وانجلترا إلى تحقيقه فى بلادها ، وحققته حكومة بدوية فى أرض قبلية ، يزيد من استغراب الإنسان له ، ويحمل العاقل على دراسة أسبابه وتفهم كنهه .

ولكن الذين أطروه وعدوه من فضائل الحكم الحاضر ، لم يتعرضوا للحديث عنه ، إلا من ناحية مظهره فقط .

أما كيف يجرى تحقيق هذا الأمن ، وما الوسائل التى تتبع فى سبيل ذلك ؟ .

فقد طوى الناس كشحا عن ذكرها ، إما لعدم الإلمام بحقيقتها ، أو خوفا من الحكومة ، أو مجاملة ، أو إشفاقا على سُمْعتها من السقوط .

يكاد يكون التعزير والتعذيب والإرهاب الوسيلةَ الوحيدة المتّبعة للتحقيق فى الجرائم ، فى المملكة السعودية .

فالقلم والمداد والقرطاس والاستنطاق العادل ، قد اختفى من إدارات الأمن .

وحلّ محلها السَّوْطُ ، وجريد النخل الأخضر ، والأثقال بالأغلال والقيود .

فلا يكاد يقع المتهم فى قبضة رجال الأمن والتحقيق ، حتى يؤمر بطرحه أرضاً ، ويجلس اثنان على رأسه ، مثلهما على رجليه ، وينهال اثنان عليه ضربا بالسِّيَاط ، أو جريد النخل الأخضر ، فيصرخ ويستغيث ، فلا يسمع من الجواب إلا قوله . « اعترف ، اعترف ! » .

فيعلو صراخه واستغاثته ، ثم هَذَيَانه وأَنينُه ، حتى يفقد وَعْيَهُ ، ويغشى عليه .

فإن لم يعترف بما يُوَجَّه إليه من اتّهام ، تُرِكَ حتى يُفيق ، ثم أُعيدَتْ عليه نفس العقوبة .

فإذا استمات دون الاعتراف ، حمل بالحديد وأُلْقِيَ فى غيابات السجن ، بضعة أيام ، ثم كُرِّرَ عليه عين العقاب فإذا لم يُجْدِ ذلك ، ألجئ إلى تقليع أظافره بالكلبتين فى السجن ، وكيّه بالسفافيد المحماة فى النار

فإذا فشلت كل هذه العقوبات فى حمله على الاعتراف ، أُفْرِجَ عنه ، وخرج إلى الناس صورة مُشوَّهة متداعية ، قد مسخها الهول والفزع ، وحطّمها الإرهاب والعذاب .

وَقلّ من المتهمين من تسعفه قواه ويطاوعه جَلَدُه إلى بلوغ هذه المرحلة من التحقيق .

بل إن مُعْظَمَهم يعترف تحت وَطْأَة العذاب الأولى ، مُكْرَهاً ، ليريح نفسه من العذاب المستمر ، بل من الموت الزؤام الطويل :

هذا هو سلاح العدالة الوحيد ، الذى تُكتشفُ به الجرائم فى البلاد ، ويحقق به مع المتهمين ، من أبناء الأمة .

وهو سلاح يستطيع أن يستعمله كلُّ قوىّ متسلِّط ، ويجعله أداةً صارمة لتحقيق الأمن ، بين أيّة طائفة يسودها ، ولو كانت من ضوارى الوحش ، لامن بنى آدم .

فتقطع أكف الناس ورءوسهم ، ويجلدون على الزنى ، وشرب الخمر ، استناداً إلى اعترافاتهم بالجرائم ، تحت تأثير عواملَ غير عاديّة تُخْرِجُهُمْ من أطوارهم الطَّبيعيّة ، وتفقدهم وَعْيَهُمْ وتعقلهم .

هذه طريقة التحقيق مع الأفراد .

أما إذا ارتكبت جريمة لا تدل القرائن والظنون على اتهام شخص معين بها ، فإن الحكومة تلجأ إلى اتهام المحلة أو القرية أو القبيلة ، التى وقعت فى حدودها تلك الجريمة .

فتقبض على أعيانها ، وتعذبهم وتصادر أموالهم ، وتُنَكِّل بهم نكالاً عظيما ؛ ويندر — جدًّا — أن يسفر ذلك عن معرفة الجانى الحقيقى .

وقد وجدت الحكومة فى اتباع مثل هذه الخطة مصدراً من مصادر الرِّزق ، وزيادة فى دَخْلِها ، فطبَّقَتْها فى كثير من الحالات .

وإذا أجرم رئيس قبيلة أخذت قبيلته بجرمه .

ومن أمثلة ذلك ما جرى عام ١٣٤٣ هجرية ، فى بلاد « بنى مالك » إحدى قبائل الحجاز العظيمة .

فقد أرسلت الحكومة خمسة من جُبَاتِها ، لجمع الزكاة من تلك القبيلة فحلوا فى ضيافة الشيخ ابن فاضل رئيسها .

فاستغل الخمسة الرجال هيبة الحكومة ، واعتدوا على رئيس القبيلة

وأهانوه ، فقتلهم شرَّ قتلة ، مدفوعا إلى ذلك بالتقاليد العربية التى تقول « النار ولا العار » .

فما كان من الحكومة إلا أن جهزت حملةً ، قِوَامُها نحو عشرين ألف مقاتل على قبيلة « بنى مالك » الثائرة — كما تزعم — وأباحت دماءها وأموالها .

فقتل منها نحو ثلاثة آلاف رجل وسبيت أموالها ، وخربت ديارها .

وقد مررت سنة ١٣٥٦ هجرية بديار تلك القبيلة ، وتبطَّنْتُ وادى « مهور » وهو من أخصب أودية الحجاز ، فشاهدت القرى قد هدمت ، والآبار قد ردمت ، والجداول قد دفنت ، والمزارع قد عطلت ؛ واكتسى الوادى بأدغال موحشة بدلا من أنسه ، وصار مأوى للقرود والبوم ، بعد قطانه .

وعددت زهاء سبعين قرية ، لم يبق منها إلا الأطلال ، فتوهمت أنى إزاء إقليم ، حلَّت به كارثة نسيت ، من كوارث الطبيعة عَفَتْ آثاره ، ومحت معالمه ، ومضت عليه — بعدها — ألوف السنين ، حتى جاء من يكشفه وينقب عما أبقته الكارثة من رسومه وأطلاله . ! ! !

ولا نقول إلا ما قال الله عز وجل .

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » .

ضرورات :

شرحنا آنفا معالم البيئة الحرة كما رسمها الدين ، أتراه نسى منها عنصراً ، أو أهمل منها مظهراً ؟ كلا .

• غاية ماهنالك : إنا نجدها مطمورة فى بطون الكتب ، لا نظفر بمن يعمل لها .

وأنه وُجِدَ من رجال الدين — أعنى الرجال الذين مَثَّلوا الأديان كلها ، فى كل عصر ومصر — مِن خرج عن هذه الحدود ، مثل ما خرج — تماما — الرجال المدنيُّو عن مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التى نادوا بها ، ثم كفروا بتطبيقها ، فى أكثر بلاد الدنيا ، التى استمعت لها ، وخدعت بقولهم ! .

فالآفة ليست فى الدين . ولا فى المبادئ العظيمة القريبة من حقيقته .

إنما الآفة فى النفاق السياسى ، الذى ضلَّل الإنسانية عن غايتها ، والذى أدار رحى المطامع ، على أكباد الأمم المسكينة فمزقتها !

وهذا يوجب على الجماهير ، أن تستيقظ لتضع حدًّا لهذا الافتيات الحقير وهذا الاستهتار الكبير .

وفى العدالة الاجتماعية ، والديمقراطية السياسية ، ضمانٌ لتكوين البيئة الحرة ، وتنشئة الأفراد على الاستقلال الذاتى ، وتمشّق الحرية الكاملة ، ورفض العبودية ، إلا لله وحده !

وحاجة الدين إلى هذه المعانى ـ ليبقى ـ كحاجة الإنسان إلى الهواء ليحيا ، وكحاجة السمك إلى الماء ليعيش .

فإذا ضاعت الكرامة الفردية والاجتماعية والسياسية ، لأمة من الأمم ، ثم قيل: إن الدِّين باقٍ فيها ، فاعلم أن ما بَقِىَ ليس إلا جثمانه الهامد، وملامحه الميتة!

وعندما يشيع الغدر بالأمم ، واسترقاق الأحرار ، وأكل أجور الكادحين من العمال والفلاحين ، فلا موضع بعدئذ إلا لسخط الله وبطشه .

ومن هنا جاء فى الحديث القدسى عن الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ـ ومن كنت خصمه خَصَمْته ـ رجل أعطى بى ثم غدر ـ أعطى عهداً أو حكما أو مالا ـ ورجل باع حرًّا وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى حقه من العمل ، ولم يوفه أجره » .

بلى ، فتلك أمورٌ يبرأ منها الدين .

ولا جَرَمَ أنه يقر كل نظام يحول دون وقوعها ، ويقى الناس غوائلها ! إنه لا يقره فحسب ، بل يدعو إليه ويناصره .

إنه لا شيء ينال من مناعة البلاد وينتقص من قدرتها على المقاومة الرائعة ، كفساد النفوس والأوضاع ، وضياع مظاهر العدالة ، واختلال موازين الاقتصاد ، وانقسام الشعب إلى طوائف ، أكثرها مُضَيَّعٌ منهوك ، وأقلها يمرح في نعيم الملوك .. !!

ومثل هـذه البلاد تـكاد لاتنهال على أبوابها مطارق الفتح الخارجى والعدوان الأجنبى حتى تنهار الأبواب ، وتذل الرقاب .

وكأنما يجعل الله ذلك عقاباً لها على سوء تفريطها فى أمرها ، وعدم تنظيمها لشئونها الداخلية .

وقد ذكر القرآن أن بنى إسرائيل سُلِّطَ عليهم أعداؤهم ، واستعمرت بلادهم لهذا السبب :

« وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً . فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ . وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً . . . »

وهكذا نرى التعالى الباطل والنظام الآثم يجر على البلاد ويلات الاحتلال ويعتبر ذريعة لوقوعها فى براثنه .

ثم يذكر القرآن بعدئذ المرة الثانية لسقوط البلاد فى يد أعدائها وتعرضها لغزوهم

« فإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » .

وهذا التحذير الرادع ، والتخويف الواضح ، ليس قسوة من القدر على

الأمم التى تَخْتَلُّ فتحتَلُّ ، والتى يسهل الظلم فيها فيسهل الظلم عليها .
فإن هذه الأمم أعضاء مريضة ، فى جسم العالم الإنسانىّ الحىّ . ولابد من علاجها لتصح حالة العالم كله .

وقد تكفل القدر بهذا : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ . وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

ومما يتصل بالكرامة الاجتماعية للأمة ، أن يتقرر فيها مبدأ تكافؤ الفرص وإتاحة العلم والعمل والمغانم والمغارم للجميع ، على سواء ! ! .

وهذا من أوليات العدالة ، التى شرع الله لعباده .

ومما يذكر أن عمر بن الخطاب أقر هذا المبدأ على أولاده ، ورفض أن يتميز أولاد أمير المؤمنين على سائر المؤمنين .

فقد أرسل أبو موسى الأشعرى — لما كان والياً للكوفة — بعض الأموال الحكومية إلى عمر ، مع ابنين له ، كانا مجندين فى الجيش القافل من الكوفة إلى المدينة ، وأراد أبو موسى أن ينفع ابنى عمر من هذا المال المرسل إلى أبيهما ، فدلهما على شراء بعض المحاصيل الرخيصة فى الكوفة ، ليبيعاها بثمن أغلى فى المدينة ، ويأخذا لنفسيهما الفرق !

ولكن عمر استولى على المال المرسل ، وقاسمهما الربح الزائد ، لأن هذه الفرصة ما كانت لتتاح لرجال الجيش على سواء ، ولا لابنيه بصفتهما الشخصية.

إنما أتيحت لهما ، لأنهما من بيت الحكم ،والربح من هذا الطريق لايجوز !!

وهذا التصرف من عمر شدة إحساس منه بضرورة تكافؤ الفرص بين المسلمين ، وضرورة قطع الطريق ، على الوسائل المريبة فى الاستغلال ، وجر المنافع الشخصية ؛ وتسليط الوساطات المغرضة ، لاقتناص الفرص السانحة ، من أيةِ سبيل ، وبأى ثمن .

أوضاعنا القلقـــــة

مقارنات

لا ندرى ، هل سيظل العمران على وجه الأرض قرناً آخر أم لا ؟ ولا ندرى ماسوف تكون عليه أحوال الشرق الإسلامى ، وأحوال غيره من أمم الأرض الأخرى .

ولكننا نكتب وصفاً مقارناً للأحوال العامة ، التى نعيش اليوم فيها ، حتى يدرك أخلافنا بُعْدَ الشُّقّة بين مُثُلنا الْعُلْيَا ، التى ورثناها من ديننا ، والواقع البشع فى حياتنا المريبة . !

وليدركوا — كذلك — بُعْدَ الشقّة بين مجتمعنا الزاخر بالمظالم — وهو — كما يقال — مجتمع إسلامى — ومجتمعات الغرب الحافلة بآثار العدالة والاستقامة — وهى — كما يقال — لا إسلام فيها ولا إيمان ! .

وسيتوارى الدُّعاة إلى الإسلام خَجَلاً ، عند ما يجدون أنه باسم النبى العظيم « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى عاش متواضعاً ، لين الجانب ، قد حكم جبابرة ، وقامت قياصرة وأكاسرة ، وأنه باسم هذا النبى الكريم ، الذى عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، قد جمعت ثروات ، وخزنت كنوز ، واستمتع أفراد ، وجاعت شعوب ! ! .

ولن نعْدُوَ فى الوصف ذِكْرَ المشاهد القائمة ، والمقالات المشورة ، وسنعرف ما الذى عرا الخصائص التى جعلت الإسلام يُسَيْطِر قديما على القلوب والأقطار ويمثل فى تاريخ الإنسانية دور التجديد والنشاط والابتكار .

ثم ما الذى أقعده فى هذه العصور ، عن أداء رسالته ، بل جعل بلاده نفسها فريسة الهوان والإذلال ! .

ولما كان كتابنا هذا خاصًّا بالناحية الاقتصادية ، فإليك صُوراً من نقائض الحياة فى بلاد وبلاد . . .

ولنبدأ بالدولة العجوز « انجلترا » عدو الشيوعية الأول ، ولننظر روابط الطبقات فيها ·

ذكرت مجلة « آخر ساعة » تحت عنوان . « الملكية » . و « الاشتراكية » ما يلى :

« ثم تعجب — وأنت فى « لندن » — عند ما ترى التوافق العجيب بين الاشتراكية والملكية . . »

إن شعب بريطانيا ، أصبح يقدس الاشتراكية . . . وهو فى الوقت نفسه يقدس الملكية .

والأسرة المالكة فى بريطانيا ، موضع حب واحترام ، وإجلال كل فرد .

وقد استحقت الأسرة المالكة الحبَّ الذى تتمتع به . . . إذ نزل الملك « جورج » عن جميع ممتلكاته للدولة ، مقابل مبلغ يتقاضاه كل عام . .

وفتحت أبواب القصور الملكية — ما عدا قصر بكنجهام — لتدخلها الجماهير وتتمتع بمشاهدتها .

ولقد أهدت الملكة « مارى » أخيراً إلى الدولة سجادة ، صنعتْها بيدها ، فى ثمانى سنوات ، وطلبت الملكة أن تعرض هذه السجادة ، فى مزادٍ بين دول العملة الصعبة . . ويضاف الثمن إلى رصيد بريطانيا ، من هذه العملة .

. . . ويتمتع أفراد الأسرة المالكة بالحقوق نفسها ، التى يتمتع بها كل مواطن فى انجلترا . وعليهم ما عليه ، من واجبات .

فإنهم يدفعون الضرائب — كغيرهم — على ممتلكاتهم الخاصّة . .

وحدث فى عدة مرات ، أن طولب بعضهم بضرائب باهظة ، فاضطروا أن

يفتحوا قصورهم الريفية للراغبين فى زيارتها ، نظير أجر . . حتى يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب » .

ويقولون لك فى لندن : إنهم لن ينسوا فرحة الأميرة « اليزابيث » بزوج من « جوارب النايلون » أرسله أحد أفراد الشعب هدية لها فى زفافها .

ولقد بلغ من الدلال فى الاستمتاع بالحرية هناك ، أن هذا التصرف النبيل من الملكة « مارى » كان موضع نقد لاذع ، من الشيوعيين الذين لم يقنعهم هذا الجهد الكريم المشكور ، وهناك ما نشرته صحيفة « المصرى » .

استغلت اليوم جريدة « الديلى ووركر » الشيوعية ، العاطفة النبيلة التى أبدتها الملكة « مارى » والدة جلالة ملك بريطانيا ، أسوأ استغلال ، واتخذت منها مادة لبثّ دعايتها ضد الأسرة المالكة البريطانية .

ويذكر القراء أن الملكة الوالدة ، قد قامت بصنع سجاد جميل ثمين ، قضت فى نسجه أعواماً طوالا ، ثم قدمته هدية إلى الأمة البريطانية ، كى يباع فى أمريكا ، وتنفق الدولارات التى ستدفع قيمة له ، فيما يعود بالخير على بريطانيا الفقيرة إلى الدولارات .

وقد تحدثت صحف العالم بأسرها — ومن بينها الصحف المصرية — عن ذلك الشعور الجميل ، الذى دفع الملكة الوالدة إلى التفكير فى خير بلدها ، فى هذه الظروف الاقتصادية القاسية ، التى تمر بها بريطانيا .

وقد شاءت الجريدة الشيوعية ، أن تَسْخَرَ من هذه العاطفة الكريمة فاقترحت فى مقال نشرته اليوم ، أن يُحوَّل جناح كامل ، من أجنحة قصر « بكنجهام » إلى مصنع ملكىّ لصنع السجاجيد ، يعمل فيه الملك والملكة والأميرات ، ونبلاء ونبيلات المملكة المتحدة .

وذلك كى تكسب بريطانيا من بيعها فى الولايات المتحدة ، ما هى بحاجة إليه من دولارات . . .

وقالت « الديلى ووركر » : إنه إذا ارتفع الإنتاج إلى عشرة آلاف سجادة فى الأسبوع ، فإن أثمانها ستعود على بريطانيا بدولارات ، تبلغ قيمتها أضعاف قيمة الدولارات التى ستتلقاها بريطانيا فى العام المقبل ، وفقاً لمشروع مارشال . .

وهذه هى المرة الثانية فى خلال هذا الأسبوع ، التى عمدت فيها الجريدة الشيوعية إلى النَّيْلِ من الأسرة المالكة البريطانية .

فقد نشرت منذ أيام قليلة صورة « كاريكاتورية » تقارن فيها بين مركز الملك والملكة ، ومركز « سبترزخاما » الزعيم الأفريقى ، الذى قررت الحكومة البريطانية نَفْيَهُ من بلاده ، لأنه تزوج من فتاة بريطانية بيضاء .

العدالة الاجتماعية بين انجلترا والحجاز :

والنظام الاشتراكى فى « انجلترا » مَثَلٌ سامٍ لتعاون السلطات كلها ، على رفاهية الشعب وتنفيذ القانون فى نطاق واسع شامل .

ونثبت هنا ، ما نشرته مجلة « المصوَّر » تدليلا على هذا الاتجاه الدقيق ، تحت عنوان :

ما حيلة الملك ، والأمر للوزير ؟ . .

« يذكر القراء — ولاشك — تلك الضجَّة التى أثارها زواج ابن شقيقة ملك انجلترا « اللورد هاروود » من ابنة ملحق نمسوى ، وحضور الأسرة المالكة حفلة الزفاف . .

ولقد استقبل الملك العروسين أخيراً ، عقب عودتهما من الرحلة الطويلة التى قاما بها . .

وفى الحضرة الملكية ، قال اللورد الشاب لخاله الملك :

« إن زوجتى تشاطرنى الفرح يا مولاى ، إذ نراك معافى وقد استعدت صحتك . . . » .

فَرَبَتَ الملك على يده قائلا :

— الحمد لله ، إذ لم يتجشَّم السير « جيمس ليرموث » — الجراح الملكى — عناء قطع ساق فى هذه المرة . . وعسى أن يعفى من هذا العناء دائماً ! .

وسأل الملك اللورد الشاب عن أحواله ، فقال :

— على مايرام ، يامولاى . . على أننى سأتخلى عن الأراضى التى أملكها فى « ليدز » . . .

فهتف الملك فى دهشة : « ولماذا ؟ . . إنها من أقدم أملاككم ، ولكم فيها ذكريات عزيزة » .

— هو ذلك يامولاى . . ولكن حكومة جلالتكم ترى أن توزيع الذكريات على أربعة آلاف فدّان ، ترَفٌ يجب أن تتقاضى عنه ضريبة باهظة ! . .

وهز الملك رأسه وهو يقول :

— أو تحدثنى عن هذا ؟ . . إننى لا أجهله . . ولكن ، ولكن ما حيلتى والأمر فى يد مستر « ستافورد كريبس » ، وهو مخلص فى تطبيق القانون ؟ ؟

وليس بمستغرب فى بلادٍ هذه شئونها الدستورية ، وأوضاعها الاقتصادية ، أن تدور فيها انتخابات حرة ١٠٠ ٪ فتخفق فيها الشيوعية ١٠٠ ٪ ولا ينجح فيها نائب واحد .

فَلْنترك انجلترا الـكافرة (كذا) إلى الحجاز ، موطن المقدسات الإسلامية ، وَلْنُمْسِكْ قلوبنا بأيدينا ، قبل أن تذوب أسىً وحسرةً ، أو قبل أن تتقطع حَنقاً وغضبا . . فماذا نرى ؟ ؟

وهناك ألوف الألوف من قطمان البشر ، يَرِدُون أماكن القمامة ، ليبحثوا فى مخلفاتها عما يقتاتون به من قشر البطيخ وغيره .

أجساد معروقة ، من طول الجوع ، تعلوها من وحشة الصحراء غَبَرَةٌ ، وتتوارى فى مزق من الثياب المهلهلة ، تحـترف فى موسم الحج ، وتتهالك على قطع النقود الصغيرة ، عندما ترمى إليها صدقات رحيمة .

وفى زحمة هذه الجماهير الحافية العارية ، تنطلق — كالسهام المارقة — سيارات الـكبراء — وهى من أحدث ما أخرجتـه مصانع العالم — مُقِلَّةً ذويها إلى البساتين المخضرة ، والمطاعم الدسمة ، ومفاتن الجوارى والغانيات .

وقد رُئِىَ أحد رُكَّاب هذه السيارة قابعاً بجسمه داخلها ، رامياً برجليه من نافذتها ، فى كبرياء وعظمة ! !

إن الذى اخترع السيارة ، يستحيي من الجلوس فيها ، بهذه الهيئة ! ! !

ولو كان هذا الفقر الذى يَرْزَحُ تحته الجمهور ناشئا عن طبيعة المعايش فى تلك القفار اليابسة ، لَمَا كان لَدَيْنا ما نقوله .

أما والحكومة تتقاضى من الحجاج ضرائب مباشرة ، تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات — عدا نفقاتهم الأخرى — أما وهناك المنابع الدافقه من الذهب الأسود « البترول » فالحالة تستحق النقد الصارخ لا النصح الهامس .

وإليك تقريراً نشرته « المصرى » عن الشئون المالية فى المملكة العربية السعودية . ذكر فيه أن الإيرادات العامة تبلغ ٨٧ مليونا من الدولارات — هذا غير ما أسلفنا بيانه عن رسوم الحج — وأن المصروفات تبلغ ٣٦ مليوناً من الدولارات — ومع ذلك فالدولة تعانى أزمة تضطرها إلى الاقتراض ! على حين كان المنتظر أن يتجمع فى خزائنها وَفْرٌ ضخم .

العجز المالى بسبب البذخ :

ويبدو أن هذا العجز المالى يرجع إلى البذخ والإسراف الشديد ، الذى يتصف به بعض أقارب الملك « عبد العزيز آل سعود » ، وكبار رجال حاشيته وموظفى حكومته .

كما أن هناك مزاعم شتى ، تتعلق بالفساد الذى يضرب أطنابه بين هؤلاء الموظفين الكبار .

ويقال إن هناك ثروات ضخمة من الذهب ، مدفونة فى الرمال ، كما أنه وقعت حوادث تهريب كثيرة ، لأن قيمة الريال السعودى والجنيه الذهبى ، تقل فى الحجاز ، عنها فى الأسواق العالمية الحرة .

مثال ذلك ما روى من أن إحدى الطائرات كانت تحمل موظفاً سعودياً لقضاء إجازته ، ثم اضطرت هذه الطائرة إلى الهبوط فى الأراضى المصرية ، حيث اكتشفت السلطات المصرية أن من بين أمتعة هذا المسافر الكبير

عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ، التى يساوى الجنيه منها أكثر من ١٢ دولاراً .

ويقال أيضاً إن كبار الموظفين السعوديين يُقبِلون على شراء الأراضى الواقعة على ساحل سوريا ، لأنهم يظنون أن تلك المنطقة ستقام فيها مصانع لتكرير «البترول» وستصبح المنفذ الجديد للبترول العربى ، إلى البحر الأبيض المتوسط .

وقد وصف التقرير حياة البذخ والترف الشديد ، الذى يحياه أقارب جلالة الملك « عبد العزيز آل سعود » .

وتحدث عن الطائرات الخاصة والسيارات الفخمة التى يقتنيها هؤلاء الأشخاص ، وقال : إن بعض الزُّوَّار الأجانب ، دهشوا ، عندما رأوا قصوراً خيالية ، قد تمَّ بناؤها فى المملكة العربية السعودية .

ويقول التقرير : إن أحد أنجال الملك (ولم يذكر اسمه) ، بنى جزءاً من قصره ، بحيث يكون صورة مصغرة طبق الأصل لفندق « والدروف استوريا » فى نيويورك .

ويقال إن الأمير نفسه ، زار الولايات المتحدة ذات مرة ، واشترى أثاثاً أمريكياً بمبلغ ٤٠٠ ألف دولار ، من محل تجارى واحد .

مثل واحد لقاعدة مطردة :

ويبدو أن الاستيلاء على المرافق العامة ، واستغلالها فى الملذات الخاصة قد سرت عدواه من وسط الجزيرة إلى ما حولها من الإمارات .

فبدلاً من الإفادة من موارد « البترول » فى رفع مستوى الشعب ، وسد خَلَّته ، وتدعيم ثروته ، تكبر أملاك بعض الرجال المحظوظين ! ويشتد عنفوان الاستعمار الداخلى :

وقد مات أخيراً «الشيخ أحمد آل جبر الصباح» أمير الكويت ، فذكرت الصحف : أنه يعتبر صاحب أكبر دَخَلٍ في العالم .

إذ هو يكسب أربعة ملايين جنيه كل عام ، أو ما يعادل ٢٨٠ ألف جنيه كل شهر ، أو ٧٠ ألف جنيه فى الأسبوع أو ستة جنيهات وستة عشر شلناً فى كل دقيقة — حسب إحصاء الصحفى الإنجليزى الذى يقول : إن هذا الدخل خالص الضريبة ، إلا مايفرضه هو نفسه عليه ليجبيه إلى خزانته ؟ .

ومصدر هذه الثروة ، البترول .

فانظر — رعاك الله — كيف تتبرع ملكة انجلترا بثمن سجادة من كد يديها وعينيها لوطنها . فيتحول الملك الخاص ، إلى عام ، إشارة إلى فناء الفرد فى الجماعة .

على حين تنعكس الآية فى الشرق الإسلامى ، فيتحول الملك العام إلى خاص ، إشارة إلى فناء الجماعات فى فرد . . .

ونحن نؤثر أن نكسر القلم قبل المضى فى سَرْدِ المقارنات والتعليقات المثيرة عندنا فى مصر .

وَلْنَتَحدَّثْ عن أثر هذه الأوضاع المقلوبة فى حقيقة الإسلام — كدين — وفى مصاير أتباعه — كأمة — فهذا ما يعنينا قبل كل شىء .

انتفاع الأمم بالإسلام

سر دخولها فيه وبقائها عليه

لقد استقبلت الإنسانية الإسلام ، منذ أربعة عشر قرناً ، كما يستقبل المدلج المجهود مطالع الصبح الباسم ، يرى فيه الهداية والرشد .

أو كما يستقبل الرقيق المغلول المكدود ، بشائر الحرية والعدالة ، فهو يطفىء فيها ظمأ روحه إلى السيادة والسعادة .

فإذا تركت المقياس الأدبى فى تقويم الإسلام — كدين — يحدد العلاقة بين الإنسان وربه على خير وجه ، ويدفع هذه العلاقة فى طريق مستقيم . ونظرت إلى الإسلام بالمقياس المادى المجرد — على ضوء انتفاع الناس منه — لكان ذلك كافياً فى فهم انتشار الإسلام ، وإقبال الأمم المختلفة على اعتناقه .

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ » .

لو كان هذا الدين « بضاعة » تصدر من الجزيرة — قديماً لاحديثاً — لأَرْسَل أهل فارس والشام ومصر ، يَسْعَوْنَ إلى جلبها والإفادة منها ، فى هدم السُّلطات التى عَبَثَتْ طويلا بمصالحهم ، وبنت كيانها على أنقاض كيانهم .

إذ كان المفهوم : أن الإسلام ديمقراطية سياسية ، واجتماعية واقتصادية ، تؤاخى بين الناس ، فيما لهم وماعليهم .

ومن ثَمّ قامت حول الإسلام الأول ، أجيال تتعصب له تعصب الخبراء الفاهمين ، لاتعصب الحمقى الجامدين .

أما الآن فأنت ترى وتلمس مبلغَ فساد التطبيق العملى ، بل الفقه العلمى للإسلام . ومبلغ إفادة الأمم الأخرى من الأنظمة التى تسودها ...

ثم نشأ عن ذلك أن الرأسمالية الغربية قامت فى بيئة تفهمها وتهضمها وتدفع عنها . وأن الشيوعية لها — كذلك — دولة تتعصب لها وتبشر بها .

أما الإسلام الذى يجب أن يكون جبهة جديدة لاشرقية ولا غربية ، فإن أحوال أهله خليط ، من ديمقراطية واستبدادية ما ، ومن رجعية وتقدمية ، ومن رأسمالية وإقطاعية .

وهذه الأسماء كلها رموزٌ لأشكال من الحكم ، ليس وراءها إلا الانهيار المعنوى ، والتبلُّد النفسى .

وعندما يكون بين جوهر الأمة وشكل الحكم فيها منطقة فراغ ، فإن أمورها لاتُؤْذِنُ بخيرٍ أبداً .. !!

وإذا كانت الشيوعية — على مابها من عورات وسوءات — قداستطاعت تكوين قومٍ يتعصبون لها ، فكيف حالنا إذا اصطدمنا بها من غير أن نكَوِّن الجيل الذى يتعصب لنظمنا الخاصة ؟

وأنَّى نقدر على ذلك ، إذا لم يحس أفراد الشعب جميعاً باطمئنان وارتياح إلى هذه النظم ؟ .

إليك صورتين من صُوَر التعصب للمبدأ ، إحداهما من روسيا ، والأخرى من أمريكا .

ولعل المستقبل يُجَنِّب الشرق الإسلامى العِثار ، فيؤدى واجبه نحو تقاليده وأبنائه .. فنقدم له صورة ثالثة أصدق وأصح .

من وراء الحدود :

أما الصورة الأولى ، فللكاتب الروسى « إيليا اهر نبورج » .

ولقد رشح « اهر نبورج » نفسه لعضوية المجلس السوفييتى الأعلى .

وهو يقول — فى مقاله الذى أذاعه راديو «موسكو» — : « إن شعبنا لن يعيش مُؤْتَمِراً بأمر الغير » .

وعبثاً يحاول الرئيس « ترومان » أن يخدعنا ، كعبث محاولة السناتور « ماكاهون » أن يَمضَّنا بنواجذه .

إننا فى غير حاجة إلى إرشاد الجبناء ، من مُلاَّك العبيد فى « كارولينا » ، كما أننا لانخشى بائعى « الخردوات » فى المدن الواقعة على المحيط الأطلسى .

ولو كان هؤلاء يوزعون القنابل ، بدلا من « الدنتللا » ، ونحن مقتنعون بأن الاشتراكية أجدى من الرأسمالية ، وأن الأخوة أسمى من قانون الغابة ، وأن صداقة الشعوب أولى من كراهية الأجناس » .

ثم تابع القول : « على أننا لانقترح تعليمهم وإرشادهم ، بل نترك أمرهم ليحكم عليهم التاريخ .

غير أننا نقول لهم — فى بساطة — : إذا كنتم تظنون أنه لايوجد ماهو أحسن من نظامكم الاقتصادى ، ومن غلاء المعيشة ، ومن كساد الأسواق ، ومن تقلُّبات الحالة المالية ، ومن الإفلاسات . فلكم أن تحتفظوا بها وأن تسيروا سيرتكم التى ارتضيتموها » .

« بل يمكنكم أن تنظموا الإنتاج وفق طريقتكم ، وتعلموا أطفالكم وفق أهوائكم ، وتكتبوا القصص الإجرامية ، وتصنعوا أفلاماً سخيفة ، بل لكم أن تضعوا أقدامكم على الموائد ، بشرط أن تكون موائدكم التى تملكونها » .

« إننا نعتقد اعتقاداً ثابتاً فى عدالة مبادئنا ، وليت لدينا أية نية ، فى تدعيم هذه المبادئ بالقنابل . ولقد دافعنا عن السلم منذ الأيام الأولى ، لنشأة جمهوريتنا ، وسنظل ندافع عنه دائما » .

ثم عاد يتحدث عن أمريكا فقال : إن الدولار أصبح معبوداً فى أمريكا .

وقال : إنه حينما كان يقيم فى أمريكا ، سمع شابا يغازل آنسة بقوله : « إنك تبدين لى كمليون دولار ، أى « ماأجملك » « ولو أن مثل هذا القول وجه إلى آنسة سوفيتية لَغَضِبَتْ ، ولها الحق كل الحق فى غضبها » .

والصورة الثانية تكشف عن وجهة النظر الأمريكية فى هذا التفكير الشيوعى الثائر . وأهل الولايات المتحدة مخلصون لحياتهم ، راضون عن أسلوبها وليسوا مأجورين للدعاية ضد روسيا .

وقد نشر مستر « ليوناردشابيرو » الصحفى المعروف ، مقالا هاما عن روسيا ، وهو من علماء القانون ، وقد درس أنظمة الاتحاد السوفييتى بدقة ، قال :

« إن هناك فرقا كبيراً بين الوعود والعهود التى كانت الشيوعية المتطلعة إلى امتلاك ناصية الأمر فى روسيا تقطعها على نفسها ، وبين الأعمال التى تحنث فيها البلشفية المنتصرة بوعودها السابقة .

فقد وعد الشيوعيون سكان روسيا فى سنة ١٩١٧ « بالسلام والخبز والأرض » وإلغاء عقوبة الإعدام .

ولكن — بدلا من ذلك — استمرت الحرب الأهلية سنتين ، وبدلا من الخبز ، مازال الجنود الروس يذهلون لمستوى المعيشة فى شرق ألمانيا ، برغم مرور أكثر من ثلاثين عاما ، على تأسيس النظام الشيوعى فى روسيا .

وأما الأرض فقد أخذها الفلاحون لكى تنتزع منهم مرة أخرى ، بواسطة نظام المزارع الجماعية الذى انتهى بخمسة ملايين ، إلى معسكرات السخرة ، لمعارضتهم له .

وأما عقوبة الإعدام فقد عادت إلى روسيا بعد أشهر قلائل من إلغائها .

ومن رأى هذا الكاتب : أنه لاأمل فى عقد أى اتفاق ، أو أى تفاهم مع ساسة الكرملين .

وتحدث الكاتب عن الوعود التى وعد بها الشيوعيون الشعب الروسى بشأن مصيره السياسى ، وقولهم له : إن دكتاتورية الدولة ستزول من روسيا ، ويخلفها نظام يكفل حرية الفرد الكاملة .

ولكن حركات التطهير استمرت من عام ١٩٢٨ إلى اليوم .

وأعلن «ستالين» أنه لابد أن تبقى الدولة ، وأن يشتد ساعدها ، ما كانت الرأسمالية موجودة فى أى مكان فى العالم .

ولم يكن من المصادفات أن أعدم « بوخارين » فى إحدى حركات التطهير المتتابعة .

فقد كان أعظم مفكرى الحزب الشيوعى الروسى بعد «لينين» ومن أقوى دعاة اختفاء دكتاتورية الدولة ، لتوفير الحرية للفرد !!

بعض ما عندنا ! :

ولعل هذا الاستعراض للمبادئ السائدة ، وعواطف المتعلقين بها ، يدل على مبلغ ما أصاب حياتينا النفسية والعقلية ، من اضطراب فى ظلال الأحوال الاقتصادية ، التى نعيش فيها .

لقد سمعت رجلا يشكو من جودة هضمه ، ويتساءل ماذا يفعل ، ليجيب صيحات معدته التى تعلو بين الحين والحين ، وهو لا يجد القوت ؟

وقرأت أخيراً نبأ المثور عَلَى جثة محترقة بالاسكندرية . فلما عرف صاحبها وانتقل المحققون إلى مسكنه ، وجدوه يعيش مع امرأته فى غرفة حقيرة ، كل ما فيها لحاف قديم مهلهل قذر ، كان الزوجان يتغطيان به ، ويضعان رأسيهما على قطعة صغيرة ، من قضبان السكك الحديد ! .

وذكرت الزوجة أن رجلها ، كان دائم الشكوى من الفقر . .

فلما وجه إليها المحقق السؤال التقليدى : هل لزوجها أعداء ؟ أجابت المرأة : نعم ؟ وأشارت إلى بطنها صارخة : المعدة يا بك ! عدونا الأول والأخير ، وهى أكبر عدو . .

هذا القتيل فى الحقيقة صريع الفوضى الاقتصادية ، وخواء المجتمع ، من حقيقة الدين والعدالة والنظام .

وإذا كانت روسيا ستجند المتعصبين لها ، لكى يقاتلوا معها ، وأمريكا ستحشد المؤمنين بنظامها ، حتى يستميتوا من أجلها .

فهل الذين تقتلهم نظمنا الاقتصادية البائدة ، هم الذين يدافعون عنها دفاع المتعصب المستقتل ؟

إننا نوجه القول إلى حكام الشرق الإسلامى المسكين :

لقد أفسدتم دينكم وأضعتم دنيانا ، وبقى لكم من الدنيا ما تحرصون عليه ، وبقى لنا من الدين ما نتمسك به .

وهذه البقايا المتهافتة توشك أن تزول ، فأمامنا الاستعمار الرأسمالى الغربى يتربص ، والاستعمار الشيوعى الشرقى يتهدد ، والصهيونية العادية الفاجرة تتلمظ .

وما هكذا تقتنص المصالح أو تساس الشعوب :

أنا النذير لكم منى مجاهرة كى لا أُلَامَ عَلَى نَهْىٍ وإنذار

فإن عصيتم مقالى اليوم فانتظروا أَنْ سوف تلقوْنَ خِزْياً ظاهر العار

وتصبحون أحاديثاً مُلَعَّنَة يَلْهُو المقيم بها والْمُدْلِجُ السَّارِى

سوء استغلال الدين فى حل المشاكل العامة

المرضى :

فى مصر أمراض متوطنة كثيرة ، تنبعث من الديدان المنتشرة فى تربتها ومياهها ، والغبار المنبثّ فى جوها يرمد العيون .

وثَمّ أمراض أخرى فتاكة ، تنشأ من قلة التغذية ، وكثرة الإرهاق ، وسوء توزيع الأعمال والأموال والعلوم المختلفة .

والتقدير المادى لقيم النفوس والأجسام ، يفرض على الحكومة العاقلة الرشيدة ، أن تحارب الأمراض ، بكافة الوسائل التى يملكها البشر .
ذلك فضلا عن التقدير الأدبى لقيم الناس ، وضرورة إنقاذهم من الغوائل التى تأتى عَلَى عقولهم وقلوبهم ، فيما تأتى عليه من أجسامهم وقواهم المنتجة .

والدين يحب العافية ، ويعتبرها النبى صلوات الله عليه وسلامه ، أفضل ماأوتيه إنسان بعد الإيمان بالله . ويوصى الناس بطلبها من الله عز وجل بعد كل أذان ، واعتبر من الأدعية المأثورة التى يكررها المؤمن خمس مرات فى اليوم « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » .

وبديهى أن التماس العافية لايكون بالتمنى على الله ، بل باتخاذ الأسباب الممكنة ، الموصلة إلى استئصال المرض ، وإشاعة الصحة العامة ، وبناء المستشفيات لذلك وتزويدها بحاجتها ، وبما هو فوق حاجتها من الأطباء والدواء .

وهذا — بداهة — بعد رفع مستوى المعيشة ، وتنظيم الأوضاع

الاقتصادية ، بحيث يستطيع كل فرد أن يأخذ نصيبه من الألبان واللحوم والفواكه وغيرها . !

تلك حقيقة يتضافر الدين مع الدنيا على تقريرها ، ويعملان معاً على تحقيقها .

ولكن الناس فهموا أن الدين إن لم يُرَحِّب بالمرض فهو لا يبالى بدفعه ! وإن اهتم بدفعه ! فبالكلام القوى ، أو بالكلام المريض .

وذاك حسبه من واجبٍ ، يفرضه على الحكومات ، ويوجه إليه الشعوب .

وعندما كانت أوبئة الحمى تحصد الرجال والنساء والأطفال فى مصر العليا . وعندما كان الموتى يحملون على الدواب كأنهم أكوام تراب ، لانهيار المناكب التى تستطيع الحمل ! استعانت الحكومة برجال الوعظ ! فى أعمال المكافحة ، لكى تستطيع إسماع القرى المنكوبة رَأْىَ الدين فى النظافة والوقاية .

وهذا العمل خير فى ظاهره وباطنه ، لو أن انعدام النظافة والوقاية ، هو السبب الحق ، فى انتشار هذه الأوبئة الخبيثة ، أو لو كانت النصائح المجردة ، هى الوسيلة الحقة لمنع هذا .

ولكن الناس يعلمون علم اليقين ، أنَّ ثَمَّةَ أسباباً هائلة ، وراء هذه القشور الظاهرة ، وأن نصائح علماء الدين لم تقف من سير المرض شيئاً ، لأن المرضى وذويهم ، أحوج إلى المال والعون والغذاء والكساء والدواء ، منهم إلى الخطب والنصائح والأحاديث والآيات .

إن الجائع لا يحتاج إلى وَحْىٍ من السماء يقال له : كل . والمريض لا يحتاج إلى وحى كذلك يقول له : استشف .

بل الناس — بفطرتهم — تحت سَوْرَة الجوع والمرض ، يتطلعون إلى الغذاء والدواء .

فمن التمسح الباطل بالدين أن نقصر فى توفير الأغذية والأدوية .

ثم نرسل — بدل ذلك — حملة من الوعاظ .

لقد « أممت » مهنة الطب فى بلاد كثيرة . وأضحى لكل مريض حق واجب على الدولة أن تتعهده حتى يشفى ، مهما بلغت نفقات دوائه .

والتأمين الصحى على حياة الجمهور لا تستكثر فى سبيله الألوف .

وإنها لجريمة أن تتاح فرصة التداوى للأغنياء ، بل لكلابهم ، فى مستشفيات خاصة ، وأن يرمى بغيرهم فى الطريق .

وأخشى أن تضطرب العلائق بين العمال وأصحاب العمل ، فتستعين الحكومة برجال الوعظ لتسكين الخواطر وتهدئة الثوائر ، بدلا من الجنوح إلى الحلول الصحيحة الواجبة ، فى أمثال هذه المشاكل ، لأن الأمر لا يعدو الاستغلال الصغير للدين ، مما تضيق به طبقات المنكوبين والمظلومين . !

ورأىُ الدين الصحيح فى هذه المشاكل ، يمكن فهمه من مصادره ، وهو أقوم السبل لإراحة الواعظين والموعوظين على السواء .

الفقر :

يعتبر الفقر سبباً ونتيجة معاً ، فى سلسلة المشاكل التى نعانى ويلاتها .

والفقر — فى نظر الدين — قد يكون معصية يسأل الفرد عن الوقوع فيها . وقد يكون نكبة تسأل الدولة عن ضرورة تلافيها .

وعوام المسلمين يرون أن رقة الحال ضرب من التدين ، وأن الفقر فى الدنيا أمارة على الغنى فى الآخرة .

وهذا خطأ بعيد ، يعمل الكثيرون على إشاعته .

فالإسلام يعتبر الفقر مصيبة ، ويعمل على تخليص الناس من آثارها ، جهد المستطاع .

وقد امْتَنَّ القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة النجاة من متاعب الْعَيْلَةِ والحيرة واليتم .

فقال تعالى : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى » :

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسلك الفقر فى أَحْلَكِ الأمور سواداً ، وأشدها على حياة الناس وقعاً .

فكان من أدعيته المأثورة « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت » .

كذلك كان يقرن استدانة العوز والحاجة بسقطات المعاصى : « أعوذ بك من المأثم والمغرم — أعوذ بك من غَلَبة الدين وقهر الرجال » .

وقد بين أن الرجل المؤمن ، هو الذى يملك شأنه ، ويحزم أمره ، ويستثمر قواه ، ولا يعيش فى الدنيا متصعلكا مضيماً .

روى سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » .

وكراهة الإسلام للقعود وَالْعَيْلَةِ ، جعلته يرفع منزلة العمل ، ويعد التعب فيه جهاداً فى سبيل الله ، والهجرة فى طلبه ، هجرة إلى الله .

ولعل التنقل فى جنبات الأرض ابتغاء الغنى والعفاف ، هو بعض ما جاء به النظم القرآنى :

« قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ » .

ولم يكن النبي مسكيناً ، على المعنى الذى يفهمه الناس للمسكنة الآن ، من هوان النفس وإغلال اليد . بل كان الأعراب يرسلون إليه الهدايا لترد إليهم مضاعفة . .

حتى إن أعرابياً غضب لأنه أهدى إلى النبي ناقة واحدة ، فَرُدَّتْ إليه ثلاث نياق فقط ! وكان ينتظر من النبي أكثر من ذلك .

ولقد هم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقبل هذه الهدايا التجارية العجيبة .

على أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المال كان مغايراً من وجوه عدة ، لموقف الناس ، مؤمنيهم وكافريهم منه .

فهو صاحب دعوة نفسية وعقلية ، تعتبر مبادئها رأسماله الضخم ، أولا وآخراً .

فإذا انتظر الأولاد من آبائهم ميراث الدرهم والدينار فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يورث أهله شيئاً من ذلك .

فقد ورد عنه : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

هو يقول ذلك عن نفسه .

على حين يقول لسعد بن أبى وقاص : « لأَنْ تَذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

فإذا لم يكن النبي صاحب خزائن مفعمة ، فإن ذلك لا يعيبه فى شيء . .

إنما يخدش رجولة الرجل العادى أن تضيق حيله . وأن يقف تحوله ، وأن تكثر ثرثرته عن الحظوظ العاثرة ، والأقدار القاهرة .

مع أن عيبه منه وداءه فيه . لأنه يؤثر معيشة العاجزين القاعدين .

ومسئولية الفقر فى هذه الحال تقع على الرجل المقصر .

غير أن هناك رجالا يأخذون للعيش أسبابه ، ويطرقون للعمل أبوابه ، ويحرق الواحد منهم دمه وأعصابه . . . ثم لا يجدون شيئا بعد هذا الجهد المضنى ، أو يجدون شيئاً يمسك الرمق ، ويسد بعض الحاجات الملحة ، ثم يجف المعين ، وتَسْوَدُّ الدنيا فى وجوههم ، وتضطرم فى نفوسهم ثورة مكتومة على المجتمع والدولة ، ويسوء ظنهم فى قيمة العمل والسعى . . .

ومثل هذه الحال تظهر وتكثر عند ما تضطرب الأوضاع الاقتصادية ، وتتدخل أمور غير إرادية ، فى توزيع الخسائر والأرباح ، فربما أصابت القاعدين بالربح ، وربما أصابت العاملين بالخسارة .

والدولة مسئولة — لا ريب — عن إعادة التوازن ، وتنظيم الأمور وتحقيق العدالة .

ولا يجوز إقحام الدين — عندئذ — فى الرضا بالقسمة والنصيب .

لقد سمعت أحد الفقراء يشكو سوء الحال ، وقلة الربح ، برغم جده . ويقول — معتذراً — : إن الجنيه يقرع الباب أولا ويسأل : هل أخى هنا ؟ فإن قيل له : نعم ، دخل . وإن قيل : لا ، يَمَّمَ شطر ناحية أخرى ، باحثاً عن مستقره إلى جنب أخيه .

وقد يكون أخوه مدفوناً تحت التراب ، أو محبوساً فى جوف خزانة .

وهكذا تعمل الأوضاع المضطربة على أن يزداد الغنىُّ غنى والفقير فقراً .

وهذا كلام ينطوى على صواب كثير ، وأكثر الحكومات فى العالم تأخذ به أخذاً واضحاً ، وتضع على أساسه سياستها الاقتصادية .

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا ، مكاسب الحرب والضرائب الاستثنائية ، التى فرضت عليها .

فمما لا شك فيه ، أن أثمان البضائع قفزت بها الحرب إلى حدّ بعيد .

وبين عشية وضحاها ، أصبح التاجر الذى كان يملك ألفاً ، يملك عشرة آلاف أو يزيد .

واقتحمت هذه الأموال الزائدة طريقها إلى خزائن الغنى ، وهو لم يكلف نفسه ، حتى مشقة فتح الأبواب ، أمام هذه الوفود السعيدة التى حلّتْ به فجأة !

وبينما حالة الحرب تفعل فعلها هذا ، وترفع به طبقة من الناس . إذا بها تفعل نقيضه مع طبقات أخرى ، فتكلفها أن تقدم دمها ، وتفقد حياتها ، أو تكلفها أن تعيش عيشة تَمِسة لا خير فيها ولا غناء .

فكان لزاماً على الحكومات أن تعالج هذه المفارقات البعيدة ، وأن تحسم نتائجها المربكة .

فوضعت شتى القوانين لمصادرة الأرباح الاستثنائية ، وحاولت أن تخفف ضغط البؤس الاقتصادى ، عن الطبقات التى نكبت به .

وقد تكون هذه السياسات الموضوعة ، أفلحت فى تحقيق الغرض منها ، لكن يبقى البحث عن الدواء الدائم ، لحالات الحرب والسِّلم معاً .

تبقى الإجابة عن شكوى هذا الفقير ، الذى يريد أن يعمل ، وأن يربح ، وأن يدخل ميدان الحياة لينتصر فيه بجده ، أو أن ينهزم فيه بتفريطه ! .

ومن المؤكد أن الجهود التى يبذلها أصحابها ، ثم لا يربحون منها شيئاً ، لاتذهب عبثاً . بل تمشى فى مسارب ملتوية ، ثم تنتهى إلى أقوام قليلى العمل ، عظيمى النتائج ، أى أن شقاء الملايين تسمد به ـ بطريق غير مباشر ـ حفنة من الرجال ! وهذا ظلم فاضح .

ومن أكبر الفواحش عند الله أن يبقى ، بله أن يستغل الدين لإبقائه .

يجب أن يدخل الناس ميداناً تتكافأ فيه الفرص ، وتؤدى الأسباب نتائجها ، وتتأكد فيه قواعد العدل الاجتماعى الصحيح .

هل العلاج فى الزكاة :

كثير من العلماء ، إذا ذكر عناية الإسلام بالفقراء ، وَحَدَبَه على الطبقات البائسة ، لم يجد مايستشهد به على ذلك إلا الزكاة .

تلك الصدقة التى فرضها الله فى أموال الأغنياء حقًّا معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ، ويفرج به ضيق المكروبين .

وهذا تفكير محدود ، واستدلال ناقص .

ذلك أن الزكاة لاتَعْدُو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة ، التى بيَّنها الشارع تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالى فى بناء أىِّ مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد .

ومن العبث ، أن تربط حياة قسم كبير من الأمة ، بالفضلات التى تلقى إليه من القسم الآخر .

والشخص الذى يستطيع العمل من كدِّ يده ، وعَرَق جبينه ، لايجوز أن نفرض عليه الاعتماد فى حياته كلها أو جُلِّها على الزكاة .

وإلاَّ فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد ، لاتشريع إصلاح .. تشريعاً يعين على البطالة ويدفع إليها ، ما دامت الفريضة لابد من إخراجها ، ومادام المحتاجون لابد أن يأخذوا منها .

وتلك كلها نتائج لايقصد إليها الدين ، ولا يمهد لها .

وقد قال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لاتجوز الصدقة عَلَى غنىّ ولا عَلَى ذى مِرَّةٍ سَوىّ » .

فالرجال الأصحاء لابد أن تُهيَّأ لهم وسائل العمل .

والربح الوافر الذى يكسبونه من أعمالهم ، هو الدعامة الاقتصادية الأولى فى بناء كل مجتمع صحيح ، بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانويًّا ، يظهر مع طوارئ الضعف والعجز والتعطل والقعود .

وهذا موضع الزكاة الواجب ، ومصرفها المعقول .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها . ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ، ماتراه كفيلا بتحقيق هذه الغاية العظيمة .

بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل ، وأن تبتكر من المشاريع العمرانية والتحويرات المالية ، مايقطع دَابرَ التعطل ، ويسوق أفراد الشعب ــ قاطبة ــ إلى ميادين العمل والإنتاج .

وليس فى دين الله ، ولا فى تعاليم الحياة ، مايحول دون هذا . بل على العكس .

هنالك من التوجيهات الدينية الخاصة والعامة ، مايؤكد هذا المسلك ويستلزمه .

فإن الإسلام — مثلا — يفرض التجنيد المالى إلى جانب التجنيدالعسكرى ويحتم تعبئة النفوس والأموال ، لخدمة الحق والفضيلة والإيمان .

وتجنيد النفوس ، وتجنيد الأموال ، ليس عملا عسكرياً بحتاً .

ومن الخطأ فهم ذلك فى عصر تطوَّرَتْ فيه الحروب ، حتى أصبحت علماً وإنتاجاً ، يستنفد طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ! .

فتجنيد النفوس والأموال عمل زراعى وصناعى وتجارى .

هو تسخير للقوى المنتجة ، وجعلها تُروساً قوية ، فى الآلة الدائبة التى

ينبغى أن تدور فى أوقات الحرب والسلام جميعاً ، للإعداد والاستعداد .

ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد .

والساهمون فى حركتها النشيطة ، هم — جميعاً — جنود مجاهدون ، يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه .

وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إن الله يثيب فى السهم الواحد ثلاثة نفر : الذى صنعه ، والذى ناوله ، والذى رمى به » .

وعلى ضوء هذه الحقائق ، تعرف القصد من قول القرآن الكريم : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » .

فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة ، أن تسن من القوانين ، وأن تضع من النُّظُم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة ، على اختلاف طبقاتها ؛ وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

فَلْيَفْهم الناس روح الدين — إن شاءوا — ولْيَعْلموا أن من حق القادر أن يعمل ، وأن يجاهد فى الحياة ما دام حياً

لا أن تتسول الحكومة له الإعانات ، وأن تفتح له مطاعم الصدقات ، وأن يكون ذلك باسم الحنان الدِّينى ، ووجوب إخراج الزكاة .

نظارِ[1] لكم أن يرجع الحقّ راجعٌ إلى أهله يوماً فتشجوا[2] كما شَجوا
على حين لا عذرى لمتذريكمو ولا لكمو من حجة الله مخرج

(١) انتظروا . (٢) تحزنوا .

تقييد الملكية

المال الذى يقع فى أيدينا ، هل هو ملك مطلق لنا ، نتصرف فيه كيف نشاء ؟ أم هو ملك مُقيَّد تخضع فيه تصرفاتنا لقوانين المجتمع وتقف ، أو يجب أن تقف عند حدود معينة ؟ .

إن نصوص الدين تجيبُ على هذا التساؤل إجابة صريحة .

وهى إجابة لا تُرْضِى مطلقاً طوائفَ الانتفاعيين ، ولا الاستغلاليين ، لأنها تَغُلُّ أيديهم عن العبث والفساد والظلم !

المال الذى فى أيدينا هو ملكنا على التجوُّز لا على الحقيقة .

ونحن مستخلفون فيه ، لينظر الله عز وجل ماذا نعمل به . فإما حكمت تصرفاتنا لنا أو علينا .

وإلى هذا يشير القرآن : « وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ » . ويقول : « أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وأَنْفَقُوا لهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

وقد فهم بعض الناس أن محاسبة أصحاب الأموال على تصرُّفاتهم فى مالهم إنما تكون هناك . . — فى الدار الآخرة — حيث يسأل كل مالىٍّ عن ماله : « من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه » كما جاء فى الحديث .

ولكن المفهوم من مبادئ الإسلام ، ومن تصرفات خلفائه الراشدين غير هذا .

فتصرفات السفهاء فى أموالهم وُضع لها الحجْرُ على حرياتهم الشخصية .

وهذا مبدأ تستطيع الدول أن تتوسع فيه .

وكما تُنقِذُ الفرد من حماقة سلوكه ، تنقذ المجتمع من حماقة بعض طبقاته !

ومبدأ « من أين لك هذا ؟ » أخذ به الخليفة الراشد « عمر » رضى الله عنه .

فصادر — على أساسه — بعض الممتلكات التى ارتاب فى مصدرها ، ورأى أن طريقة تملكها باطلة .

والقاعدة العامة فى هذا ونحوه ، نأخذها من قول القرآن الكريم :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

فهدف الديانات والرسالات الأولى : قيام التوازن بين الناس ، بإقامة العدل الاجتماعى والسياسى فيهم . وتشريع القوانين المادية والأدبية التى تكفل تحقيق هذة الغاية الكبيرة بينهم .

وبديهى أن الميزان الذى جاء به الأنبياء ، ليس الميزان الحديدى الذى يمسكه التجار . ولكنه الميزان القانونى الذى يمسك به المصلحون لضبط الأوضاع والأعمال ، وتوزيع الحقوق والواجبات ، وتنظيم الهيئات والطبقات !

وهو ميزان تتجدد أحكامه بتجدد العصور ، وتتغير قوانينه بتغير الأمكنة والأزمنة .

ولكن قيام الناس بالقسط ، هو محور الارتكاز الذى لا يتغير أبداً ، والذى يوضع هذا الميزان له بياناً وفرقاناً .

وقد قال بعض علماء الأصول : إن مصالح الناس المرسلة ، لو وَقفَ دون تحقيقها نصٌّ أُوِّلَ هذا النص ، وأمضيت المصالح التى لا بد منها .

وقالوا — كذلك — : إنه يجوز قتل ثلث الناس ، لإصلاح حال الثلثين !

فإذا كان إصلاح حال الجماعة الإنسانية يقتمد من الدين هذه المنزلة .
فهل تقف الحقوق المكتسبة أو المغتصبة لبعض الطوائف دون إصلاح المجتمع العام ، وتحقيق السعادة لأكبر مجموعة من أبنائه ؟

وهل لا يجوز بعدئذ تقييد مبدأ الملكية الزراعية والصناعية ، لتحطيم قيود الجهل والرذيلة والبأساء ، التى ترزح تحتها جماهير الشعوب ؟

إن التعنُّت فى هذا ، جَهْلٌ بالدين ، وظلم له عظيم . . .

فحساب الناس على أموالهم دنيوى وأخروى معاً ، ورعاية المصلحة الفردية والاجتماعية والسياسية تدخل فى نطاق هذا الحساب ، دخولا لاشك فيه .

وللحكومة — من وجهة النظر الدينية — أن تقترح ماتشاء من الحلول ، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة ، لضمان هذه المصلحة ، وهى مطمئنة ، إلى أن الدين معها لا عليها ، مادامت تتحرى الحق ، وتبتغى العدل .

ومنع المنافع العامة ، من أن تكون ملكا لشخص واحد ، وجعلها ملكا للدولة وحدها ، أمر لا شىء فيه .

إذ ورد فى الحديث : « إن المسلمين شركاء فى ثلاثة : فى الماء والنار والكلأ » .

وهذا من قبيل التمثيل للأمور التى كان لا يجوز — قديماً — احتكارها لفرد مَّا ، إذ أن حاجة جماهير الناس إليها سواء ، فلا يصح تمكين يد واحدة من الاستيلاء عليها .

فإذا اتسعت حاجات الناس باتساع الحضارة وتغير الزمن . فعلى الحكومة أن تضع يدها — باسم الشعب — على مصادر الثروة العامة كلها ، وأن تُقْصِىَ المحتكرين — أفراداً كانوا أو شركات — من محاولة استغلالها لأنفسهم ، وتسخيرها وتسخير الشعب معها لمطامعهم .

دلالة المال المعنوية :

تزكية النفس والضمير ، وترقية الخلق والسلوك ، من أهم ماعُنى الدين بدرسه وغَرْسه ، وهو — وحده — مقياس الخير والشر ، وميزان القِيَم الصحيحة للرجال .

وقد تواضع الناس من قديم على اعتبار هذه الحقيقة فوق الشك والجدل ، من الناحية النظرية .

أما من الناحية العملية ، فوزن الرجال بجيوبهم قد يقدم على وزنهم بقلوبهم . ومقدار مالديهم من مال هو الذى يحدد مقدارهم بين الناس .

حتى شكا الشاعر من أنه حين يطلب رؤية الشريف يريه الناس الغنى دائماً ، كأن الشرف فضة أو ذهب لا علم ولا أدب :

إذا قلت يوماً لمن قد ترى أرونى السَّرىَّ أَرَوْكَ الغنى

ومثل هذه الحال جديرة بعلاج الدين ، حتى لا تنطمس الحقائق ، ويستحمق رأىُ الناس فى الفضائل ، ويضلون طريق اكتسابها .

وقد بدأ القرآن الكريم فنفى أن يكون المال — وإن كثر — مظهراً لرضوان الله عن شخص مَّا ، كما نفى أن يكون فى الإقتار دليل على تجرد الإنسان من الخير والفضل ، فقال :

« وَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ... كَلَّا » ، « أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ؟ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » .

بل إن القرآن ذهب إلى أبعد من هذا ، فى نفى كل دلالة معنوية عن المال.

فبيّن أنه بعض متاع الحياة الدنيا ، الذى ينتهى معها إلى فناء وعدم ، على حين يخلد الحق والخير ، ويبقى المستمسكون بها أحياء ، بعد فناء الدنيا وما فيها .

وأنه لولا تخوف الفتنة على ضعاف النفوس ، لقصر المال والجاه على الأراذل والأشرار .

« وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً ، وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » .

ومن الطريف : أن النبى صلى الله عليه وسلم حكى : « أن رجلا دخل الجنة فرأى عبده فوق درجته ! فقال : يارب هذا عبدى فوق درجتى قال : نعم جزيته بعمله ، وجزيتك بعملك ! » .

وهذا بيان جميل لرأى الدين الواضح ، فى أن الرجال بأعمالهم لا بأموالهم .

وقد جاءت آيات شتى ، تَنْفِى كل دلالة معنوية للمال ، وتجابه الطبقات الغنية بالحقيقة التى يكثر نسيانها وينتشر الجهل بها أو تجاهلها .

حقيقة إن قيمة الرجل بما يعمل لا بما يملك .

ومع ذلك ، فموازين الحياة المختلفة مازالت — ولاتزال — تقوم على عكس ذلك .

وشيوع البغى الاجتماعى والسياسى — تبعاً لاختلال الأوضاع الاقتصادية — يؤكد رأىَ القرآن فى المال عند ما يفيض فيغرق ويهلك : « إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » . « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ » .

ويؤكد كذلك ضرورة التحكم فيه ، حتى لايكون مثار بغى ولا طغيان .

فطالما أصيبت الإنسانية فى مقاتلها ، من قلة القوانين التى تضبط توزيع المال وتقيد استغلاله وإنفاقه .

وطالما كان وجود المال فى الأيدى العابثة الفاجرة ، مثار إغواء بالعبث والفجور ، يكاد يخلع الإيمان من القلوب ، ويطرد الطمأنينة عن المجتمعات ، لولا صيحات التحذير التى تعيد الحق فى نصابه ، وترد إلى الفضائل والْمُثُلِ العليا قيمتها الثابتة ، وتهون من شأن المال وأصحابه .

وذلك فى مثل قول القرآن الكريم :

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » . . .

وأصحاب الأموال إنما يأخذون مكانتهم فى الحياة ووجاهتهم بين الناس لسببين :

الأول : أن المال يعطى صاحبه قوة بالغة يحقق بها مآربه ، ويبلغ بها أغراضه ، ويستطيع — فى ظلها — الاستغناء عن الكثيرين من الناس ، والكثير من الأعمال المحرجة والمضنية .

والناس يُدْنيهم الاحتياج ويبتذلهم ، ويقصيهم الاكتفاء ويمكن لهم .

ومن ثَمَّ أدخلنا العوامل الاقتصادية فى تكوين الفضائل والرّذائل ، ولم نغفل خطرها فى تكوين الشخصية الإنسانية .

الثانى : أن الدين يَعِد المؤمنين بحسنى الحياتين جميعاً .

فهم إن آمنوا وأصلحوا ، صلحت معايشهم فى الدنيا ، وصلح مستقبلهم فى الآخرة .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فالسعادة فى الدنيا بعض الأجر المعجَّل للإنسان ، على استقامته فيها .

وقد قال الله عزَّ وجل — فى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام — :

« وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

ولذلك وهِمَ الأكثرون ، أن الغنى مِنَحٌ إلهية ، تدل على الرضاء العالى . وأن السعادة المرجوة ، لا تقوم إلا على رُكامٍ كثيف من المال .

وقد تضافر هذان السببان على إعطاء الطبقات الغنية ، مهابة فى القلوب ، وسعة فى الجاه ، مما جعل جمهور الشعب يتلقى سطوتها بالقبول والانحناء ، تارة باسم الدنيا ، التى يملكها صاحب المال ؛ وتارة باسم الدين ، الذى يجعل الدنيا نصيباً مفروضاً للأغنياء ، أخذوه باستعدادهم واستحقاقهم . . .

ولكن الدين — كما علمت — لا يرى فى المال أية دلالة معنوية .

وطيب الحياة الذى وعد الله به المتدينين ، لا يعنى كثرة المال ، وبسطة الرزق ، واتساع الجاه .

فهذه أمور قد يصيبها المؤمن ، وقد يصيبها الكافر ، قد ينالها البعيد عن الله والقريب منه ، إذ قال الله تعالى :

« كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » .

• وقد ينكب المؤمن فى هذه الأمور ، لعوامل طارئة ، فلا تنقص قيمته . ولا تخدش كرامته ! . . .

أما طيب الحياة المفروض للمؤمن ، فمعناه أن يعيش كبير القلب ، رفيع الرأس ، يُقبل على الدنيا ، ليأخذ منها زاده المادى ، ويقبل على الدين ، ليأخذ منه زاده الروحى . يحرص على إيمانه بربه أبداً ، ويحرص — كذلك — على نصيبه الحق الكريم من دنيا الناس .

فإن فقده فداء إيمانه بربه وإنسانيته ومُثُلِهِ العليا ، فإلى حيث أَلْقَتْ ، وإن وجده عَوناً ومَدداً لحياةٍ نقية ، بعيدة عن الهوان والطغيان ، فبها ونعمت!

والمذاهب السياسية والاقتصادية ، التى تغمر العالم فى الفترة الأخيرة من تاريخه ، تنظر إلى الدنيا هذه النظرة نفسها ، والرجال الذين ينادون بها يريدون أن يعيشوا فى ظلها سعداء ، أو يموتوا دونها شهداء .

فالشيوعية — مثلا — فى روسيا وعدتْ جمهور الشعب بحياة لا شقاء فيها ولا جوع ولا بأساء .

فإذا تحمَّل جمهور الشعب الشقاء والجوع والبؤس فى سبيل الذَّود عنها ، حين وقعت الحرب بين روسيا وألمانيا . فليس ذلك طبيعة النظام الذى ارتضوه لأنفسهم ، ولكنها طبيعة الحرب ، التى فرضت عليهم .

وما يقال عن الشيوعية ، يقال عن النازية ، ويقال عن الديمقراطية .

فكل دين أو نظام يَعِدُ أصحابه الخير الكثير ، ولكنه لا يكذب إذا كلَّف أصحابه أن يقدموا أنفسهم وأموالهم وكل خير لديهم فى سبيله !

غاية ما هنالك أن الأنظمة المدنية لا تعد أشياعها إلا بأجزية مادية قريبة .

أما الدين فيَعِدُ أتباعه بالآخرة إن هم — فى سبيله — فقدوا الدنيا .

هل يفهم أحد من ذلك ، أن الدِّين يكره الدنيا ويحتقر المال ؟ ؟

إذا كان الدين يُتَّهَمُ بذلك ، لأنه يأمر الناس أحياناً أن يُضَحُّوا بالدنيا ،

وأن يزهدوا فى المـال . فإن الأنظمة المدنية والمبادئ الإلحادية ، ينبغى أن تتهم كذلك بالتهمة نفسها ، لأنها كلفت أصحابها أن يُضَحُّوا بالرجال والأموال ، ولـكن أحداً لم يتهمها بذلك .

لأن سوء الفهم للدِّين وحده ، موفور ، إذ تؤيده الشهوات ، وتدعمه الأهواء ! .

أما سوء الظن بالمبادئ والأنظمة الأخرى فقليل أو معدوم .

***

ليست للمال دلالة معنوية مجردة ، على خير أو شر ، وإن كان من الممكن أن يكون خيراً ، ومن الممكن أن يكون شرًّا ، على حسب الطرق التى يؤخذ منها وينفق فيها .

غير أننا إذا أردنا بناء عالم جديد ، تمتزج فيه الدنيا بالدين ، لخير الإنسانية ومستقبلها ، فلْنَضعْ نصب أعيننا أولا ، ضرورة تقارب الملـكيات وتـكافؤ الفرص ، وتساوى الأفراد فى الحصول على المقومات الأولى للإنسان ، من غذاء ، ولباس ، وعلم ، وخلق .

ففى هذا الجو — وحده — يكون التسامى بالمواهب العظيمة فقط ، وتقل أو تنعدم كل دلالة باطلة للمال ، على رفعة أو جاه .

ويجب ثانياً أن يوضع من الأنظمة ما يجرد الأغبياء من مظاهر الذكاء ، وما يرفع الأذكياء عن حياة الخمول والتعطل ، وذلك يتطلب تقويم كفاية الفرد تقويماً ماديًّا ؛ فمن ارتفعت منزلته الأدبية ارتفعت منزلته المادية .

وقد كان أبو بكر يوزع المال على الناس سواسية ، فلما جاء عمر ، رفض هذا التقسيم وأعطى الناس حسب منازلهم .

ذكر الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه « فقه الصحابة والتابعين » :

كان الصديق أبو بكر يُسوِّى بين الناس فى أعطيتهم فلا يفضل أحداً على أحد .

قال يزيد بن أبى حبيب : إن أبا بكر لما قدم عليه المال جعل الناس فيه سواء وقال : « وددت أن أخلْص مما أنا فيه بالكفاف ، ويخلص لى جهادى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحدث الليث بن سعد أن أبا بكر كُلم فى أن يفضل بين الناس فى القَسم فقال : « فضائلهم عند الله . فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير » . !

فلما تولى عمر الخلافة واتسعت الفتوح وتدفقت الغنائم رأى عمر فى توزيع العطاء بين الناس غير ما رأى سلفه .

رأى أن لا يسوى بين من قاتل رسولَ الله وبين من قاتل معه !

ثم جعل الناس مراتب وطبقات فى الأخذ من هذا المال ، حسب درجة كل منهم فى الإسلام . . .

ومن كلامه فى تبرير هذا التفاوت : « ما أنا فى هذا المال إلا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقَسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . !

فالرجل وتِلَادُه فى الإسلام . . . !

والرجل وغَنَاؤه فى الإسلام . . !

والرجل وحاجته فى الإسلام . . !

وعندنا أن مَأْحظ عمر فى تقسيم العطاء أولى بالتطبيق .

فإن درجات الناس فى الآخرة حسب إيمانهم ، لا تهدىُ الفوارق التى تقوم بينهم فى الدنيا حسب كفايتهم وجهادهم .

وإن كان أبو بكر يرى الدنيا أنزل قدرا من أن تراعى فى تقدير .

وحجة أبي بكر فى صنيعه : أن حساب الناس على أعمالهم وجهادهم إلى الله وحده ، فى الدار الآخرة .

أما الدنيا ، فالأمر أمر مِعَدٍ ، يجب أن تملأ ، وأجساد ، يجب أن تكسى ، يستوى فى ذلك الناشط والكسول ، والمتقدم والمتأخر .

لكن عمر أبى إلا تحقيق العدالة ، وتنظيم الأوضاع ، وتكريم المتقدم ، وتأديب المتأخر فى الدنيا ، وحساب الناس — بعد ذلك — إلى الله .

حق الناس فى المال :

لا يجوز أن يبقى رجل من غير دَخْلٍ — قليل أو كثير — يكفل له المستوى الواجب لمعيشته .

وعلى المجتمع الدِّينى ، أن ينظم أموره تنظيما ، يؤدى إلى هذه النتيجة المحتومة ، وإلا كان مجتمعاً لا دين له .

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيُّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » :

وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء ، بأنه إذا مات رجل جوعاً فى بلد اعتبر أهله قتلة ، وأُخذت منهم دية القتيل .

وقداعتبر القرآن أنه من التكذيب بالدين ، أن تَدُعَّ اليتيم ، وألاَّ تَحُضَّ على طعام المسكين .

فكيف يكون رأْىُ القرآن فى بلادٍ لا تهمل الحض على طعام المسكين فقط ، بل تصنع الفقر والمسكنة ، وتخرج إلى المجتمع الإنسانى ، ألوف الفقراء والمساكين .

فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة ، تصوغ البؤس فى قوالب من أبناء آدم ، ثم ترمى بهم على أفاريز الطرق ، وفى خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجىء والمستشفيات ؟

هل نسمى هذا إلا أنه كفر بالدين ، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه إى وربى ، وإن أصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة[1] فى الدار الآخرة :

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . . . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ » .

والمال الذى يكفى لإذهاب العَيْلَةِ ، واستئصال الحرمان ، وإشاعة فضل الله على عباده ، يجب إخراجه — مهما عظم — من ثروات الأغنياء ، ولو تجاوز تجاوزاً بعيداً مقادير الزكاة المفروضة .

فمقادير الزكاة ليست إلا الحدّ الأدنى لِمَا يجب إنفاقه .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى المال حقًّا غير الزكاة » .

ولنا كلام يأتى بعد فى أنصبة الزكاة التى فرضها الشارع .

غير أننا نلفت النظر ، إلى أن الزكاة فى صدر الإسلام ، لم تكن المصدر الوحيد ، الذى رُصِدَ لمحاربة الفقر واستئصال شأفته .

فقد كانت أموال الفيىء والغنائم والخراج ، مصادر أخرى غزيرة النفع ، تعمل عملها الواسع فى تفريج الضوائق ، وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين . فإذا جفَّت بعض المنابع ، كان على المنابع الباقية أن تحمل العِبْء كاملا ، وعلى

---

(١) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالميول الاشتراكية .

الدولة أن تستنبط من موارد المال ، ما توازن به شئون المجتمع ، وتقيم به مصالح الناس . والدِّين لها فى كل ذلك ظهير .

وإذا كانت الغاية التى شرعت من أجلها الزكاة ، هى تحرير الفقراء من قيود الفاقة ، وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك ، فلْنُحَقِّقْ هذه الغاية كاملة ، وَلْنحْمِل ما تفرضه علينا من تكاليف ، قليلة أو كثيرة !

لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان — والحق يقال — هدف أكثر الحكومات المتتابعة ، فى العصور السابقة واللاحقة .

إذْ أن تجويع الجماهير ، بعض الدعائم التى تقوم عليها سياسة الظلم والظلام .

ومن هنا انتشر الفقر انتشارا ذريعاً فى الشرق الإسلامى ، وسخر الدين ورجاله ، لحمل الناس على قبوله واستساغته ، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى ، تفسيراً سقيما ، نسى الناس معه حقوقهم وحياتهم ، وجهلوا دنياهم وأخراهم ، وحسبوا الفقر فى الدنيا ، سبيلا إلى الغنى فى الآخرة ؛ كما أسلفنا القول .

ونحن لا ننكر أن هناك آثاراً دينية ، تحمد الفقر وتنوِّه بشأنه .

ولكن ما دلالة هذا وما معناه ؟ هل إذا قال شاعر :

جزى الله الشدائد كل خير ... عَرَفْتُ بها عَدُوِّى من صديقى

قلنا إن الشدائد خير . . وألفنا مصلحة أو وزارة ، نسميها وزارة الشدائد لتذيق الناس لباس الجوع والخوف ! !

وإذا قال القرآن الكريم فى وصف حديث الإفك ، الذى طُعِنَ به شَرَفُ السيدة عائشة — صانها الله وكرمها — :

« لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قلنا : إن الإفك خير ، وألَّفْنَا جماعة لترويج الزور ، وَرَمْىِ الناس به ، ودعوة الناس إلى الصبر عليه ! !

وإذا وقفنا على حديث للنبي صلى الله عليه وسلم يمدح الفقر على النحو الذى عُزِيَتْ به السيدة المتهمة بالإفك ؛ وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين ، ليعيشوا فى الدنيا فقراء بائسين ! !

أجل ، فإن الشدائد خير ، وإن الإفك خير ، وإن الفقر خير ، ما دامت الطبقات الكثيفة من الشعوب ستنام على الضيم ، تاركة النعمة والترف والبذخ لمن قيض لهم هذا كله من المحتكرين والمستغلين ! !

وهذا هو المنطق الذى يراد أن يقبل باسم الدين . . .

إن مصائب الحياة ، قد تكون خيراً لا ريب فيه ، كما تكون السموم دواء فى بعض الأحيان لأمراض الجسد .

وهناك أفراد — بل أمم — تمتلىء حياتها بمظاهر الكبر والجبروت والعدوان ، وتحتاج إلى قمع وتأديب يَغُضُّ من كبريائها ويَحُدُّ من عدوانها ، فيبتليها الله بالآلام .

وليس فى شىء من هذا ما يبيح لنا الظلم الاجتماعى ، أو ما يقسم البشر إلى آلهة وعبيد .

وسنة الله فى خلقه ، أن يقيم ميل الإنسانية إذا اعوجَّت . وأن يُعيدَ إليها توازنها إذا اختلَّتْ ، وأن يرددها لذلك بين السلم والحرب ، والغنى والفقر ، والأمان والقلق .

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

فلنترك للقدر الأعلى أن يبرز حكمته ، وأن يتخذ وسيلته ، فلا شأن لنا بذلك ، إنما كُلِّفْنَا — ونكلف أبداً — أن نقيم العدالة بيننا ، وأن نفرغ فى تحقيقها وسعها . وأن نبذل قصارانا ، فى مصلحة الجماعة ، وضمان حقوق الفرد ، متجنبين الفتن والمحن ، بكل ما نملك من قوة وتفكير .

الزكاة والضريبة

للمصالح المرسلة وأنواع القياس منزلة كبرى فى الفقه الإسلامى ؛ فهى مرجع خَصْب لكبار الأئمة ، يستنبطون منه شتى الأحكام ، ويواجهون به صُوَرَ الحياة المتجددة على مَرِّ الأيام .

وإلى هذه الأصول التشريعية أمر عمر بالقصاص من جماعةٍ ، قتلوا واحداً ، فقتلهم جميعاً ، وإليها كذلك ، لم تعتبر أرض فارس غنيمة ، تقسم أخماساً على الفاتحين ، فأبقى الأرض لأهلها ، وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية .

وإليها أيضاً أشار عليٌّ بجعل حَدِّ الخمر ثمانين جلدة ، فإن من سكر هَذَى ، ومَنْ هَذَى افْتَرَى .

والأمثلة كثيرة ، وليس هنا موضع سردها . . .

زكاة المال وزكاة الدخل :

وقد جدَّتْ فى هذا العصر مشكلاتٌ مالية ، لا يجوز أن نقف أمامها مكتوفى الأيدى ، كما لا ينبغى أن نتراخى فى وضع حلولها ، حتى لا يضطرب الناس فى أمر دينهم ؛ من ذلك نظام الزكاة .

فالزكاة ركن من أركان الإسلام الأول ، ومن دعائم أوضاعه الاقتصادية ، التى يكفر من جحدها ويحارَبُ مع المرتدين من منعها .

وأنصبة الزكاة فى صنوف المال ، حدَّدها الدين تحديداً يُعْتَبر نصًّا فى أكثر الأحوال ، ونريد أن نعتبر — قياساً — فيما سنورده من أمثال .

ذلك أن الإسلام أوجب إخراج ربع العشر ، من رأس المال الذى يبلغ مائتى درهم فما فوقها . والزكاة فى هذه الصورة ، معتبرة برأس المال فقط ، زاد أو نقص ، أو بقى على حاله ، ما دام قد مَرَّ عليه عام .

وقد فرض الإسلام — كذلك — زكاةً فى الزروع والثمار ، جعلها العشر أو نصف العشر :

والزكاة فى هذه الصورة ، قد اعتبرت على أساس الدَّخل الناتج ، مرَّ عليه العام ، أو لم يَمُرّ ، ولا عبرة فيها برأس المال المُغَلّ — وهو الأرض المزروعة — قَلَّتْ قيمتها ، أو عَظُمَتْ .

ومن هنا نستطيع الحكم ، بأن قاعدة فرض الزكاة فى الإسلام ، قد تكون رأس المال ، وقد تكون مقدار الدَّخل .

ونخلص من هذا ، إلى أنَّ من له دَخَلٌ لا يقل عن دَخلِ الفلاَّح الذى تجب عليه الزكاة ، يجب أن يخرج زكاة مساوية ، ولا عبرة ألبتة برأس المال ، ولا بما يتبعه من شرط .

فالطبيب والمحامى والمهندس والصانع وطوائف المحترفين والموظفين وأشباههم ، تجب عليهم زكاة ، ولا بد أن تخرج من دخلهم الكبير

ولنا على ذلك دليلان .

الأول : عموم النص فى قول القرآن الكريم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ » .

ولا شك أن ربح الطبقات الآنفة ، كسبٌ طيِّب ، يجب الإنفاق منه ، وبهذا الإنفاق الواجب ، يدخلون فى عداد المؤمنين ، الذين ذكر القرآن أنهم هم . « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

والدليل الثانى : أن الإسلام لا يتصور فى حقه أن يفرض الزكاة على فلاح يملك خمسة أفدنة ، ويترك صاحب عمارة تدرُّ عليه محصول خمسين

فداناً ، أو يترك طبيباً يكتسب من عيادته فى اليوم الواحد ، ما يكسبه الفلاح فى عام طويل ، من أرض إذا أغلّت بضعة أرادب من القمح ، ضربت عليها الزكاة يوم الحصاد ! . .

لابد إذاً من تقدير زكاة على أولئك جميعاً ، وما دامت العلة المشتركة التى يناط بها الحكم موجودة فى الطرفين ، فلا ينبغى المراء فى إمضاء هذا القياس وقبول نتائجه .

وقد يقال : كيف نقدر هذه الزكاة ! وعلى أى نسبة تكون ؟

والجواب سهل . فقد ردّد الإسلام زكاة الثمار بين العشر ونصف العشر ، على قدر عَنَاء الزارع ، فى رَىِّ أرضه ، فَلْتَكُنْ زكاة كل دَخَل على قدر عناء صاحبه فى عمله .

ومن الممكن إيضاح التفاصيل ، وتفريع المسائل ، وتحديد القِيَم ، بعد أن يتقرر هذا الأصل الخطير .

والأمر لا يستقل به تفكير واحد ، بل يحتاج إلى تعاون العلماء والباحثين .

أضرار التطبيق الحرفى لنظام الزكاة :

نريد أن تؤْتِىَ النصوص ثمارَها فى أوسع نطاق ممكن لها ، وألاَّ نحصرها فى حدود ضَيِّقة ، تبقى بعدها قليلة الجدوى ، قليلة الغناء ، وإلا استطاع الأغنياء أن يخرجوا من تبعة الإنفاق المحتوم ولا لَوْمَ عليهم ؛ وضاعت على الفقراء أموال كثيرة ، الدِّين — فى الحقيقة — برىء من إضاعتها .

فمثلا ذكر لى أحد التجار أن لديه ٢٠٠٠ من الجنيهات رصيداً لعمله ،

وأنه يجب عليه أن يخرج عنها ٥٠ جنيهاً ، وهو القدر الواجب إخراجه للزكاة .

فإذا اشترى بهذين الألفين بيتاً ، واستغلّه بطريق الإيجار ، فهل تجب عليه زكاة ؟

والقواعد الموضوعة الآن ، توجب إخراج الزكاة عن الألفين الموضوعين فى الخزائن لا يكسبان شيئاً . ولا توجب إخراج زكاة مّا عن الألفين اللذين يكسبان الكثير ، عندما وضعا فى بيتٍ للإيجار .

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفى لنصوص الزكاة ! !

وهناك أصحاب العِزَب التى تؤجر لصغار الفلاحين . يأخذ الملاك الألوف المؤلفة منها ، وهم لم يُعْملوا بهايدا ، ولم يغبرّوا قدما ، وينفقون ما يصل إلى أيديهم عن آخره ، فيكاد لا يبقى منه شىء ، لأنهم موقنون بأنْ سَتُجبَى إليهم ثمرات كل شىء . . .

وهؤلاء لا تجب عليهم زكاةٌ ، على حين تجب الزكاة على المزارعين الكادحين فى أملاكهم ، المتعَبِينَ طول العام فى السعى وراء أرزاقهم .

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفى لنظام الزكاة ! ! وهو مالا يعقل أن يُقِرّهُ الدين :

ولو عُرِضَتْ هذه الصُّوَرُ للأئمة المجتهدين الأوائل لَكانَتْ لهم فى ذلك آراء حاسمة ، وَلانْمَاعَ من الفقه الإسلامى هذا الجمود الذى لا يزال يقرر أن أقل نصاب تجب فيه الزكاة من الفضة مائتا درهم ، ومن الذهب عشرون مثقالا ، مع وحدة النقد فى هذه الأيام ، وضرورة تساوى القِيَمَ من الذهب والفضة وغيرها ! !

على أن إثارة الكلام حَوْلَ أنصبة الزكاة وَقِيَمِها ، لا يغير من معنى الزكاة الذى أشرنا إليه فى فصل سابق ؛ فهى محدودة المصرف والغرض ، وميزانيتها — ضاقت أو اتسعت — لا تنفق إلا فى مشروعات البر والإحسان ، التى أشارت إليها آيات القرآن :

أما كيان الأمة الاقتصادى ، وما يتصل بهذا الكيان ، من تحقيق للعدالة الاجتماعية ، ونشر للفضائل ، ومحو للرذائل ، وتعميم للثقافة ، وعناية بالصحة العامة ، وتنفيذ للمشروعات العمرانية ، ودفاع عن البلاد ، وحماية لمقومات الإنسانية ومُثُلِها العليا ، وجهاد فى السِّلم والحرب لذلك كله ؛ فهذا لا صلة له بنظام الزكاة .

وإنما تؤخذ الأموال اللازمة له من شتى الضرائب والالتزامات ، التى تفرضها الدولة ، كيف تشاء ، ومتى تشاء .

هل تغنى ضريبة الأرض عن زكاتها ..؟

كتب الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب خلاف بك تحت هذا العنوان بحثاً قَيِّماً ورد فيه « أن الضريبة التى تحصلها الحكومة عن الأرض الزراعية فى مصر هى خراج توظيف ، وَمُلَّاكُ هذه الأرض الخراجية ليس عليهم فى مذهب الحنفية زكاة » . . .

وهذا النقل من مذهب الحنفية صحيح ، ولكنه عند التمحيص العلمى والرجوع إلى النصوص الخاصة والقواعد العامة فى ديننا الحنيف يكاد لا يرجح .

وقد تكون هناك ملابسات أَوْحَتْ بهذا الحكم قديماً .

أما الآن فلا وجه لاستقراره .

وليس الرفق بالفقراء هو الذى يبعثنا على مناقشة هذا الرأى ، بل كشف النقاب عن الحق المجرد فقط ، ثم تأتى إفادة الفقراء منه تبعاً .

إن الزكاة — كحق لله فى مال الإنسان — شىء يغاير الجزية والخراج والضرائب الأخرى .

ومصارفها التى وضعها القرآن الكريم ، وحصرها فى طبقات معينة ، غير مصارف الأموال التى تستولى عليها الدولة بأى اسم آخر ، ولأى سبب آخر .

ولا مكان للخلط بين حصيلة الزكوات ، وموارد الخزينة الأخرى البتة .

فالأساس فى فرض الضريبة ، الإنفاق فى المصالح العامة ، التى تعود — بطريق غير مباشر — إلى دافعيها ، فى شكل حراسة للأمن ، وتمهيد للطرق ، وإقامة للجسور ، وحفرٍ للتُّرَع . . الخ

وما دامت الحكومة تخدم الفرد فى نواحٍ شتَّى ، فمن حقها عليه أن تتقاضاه ثمن هذه الخدمة .

فالضريبة إذاً سدادٌ لمصلحة شخصية .

أما الزكاة والصدقات فأساس فرضها تكليف المؤمن ، أن يقوم بشىء من حق أخيه المؤمن عليه ، وقوامها البر والإيثار والرحمة .

ولا يجوز — البتة — صرفها فى المصالح المدنية العامة

وقد كان الإسلام يفرض على المسلمين الزكاة بأنواعها ، ويفرض على غيرهم ضريبة الجزية ، وهى على الأشخاص ، والخراج ، وهو مضروب على الأطيان .

فإذا أسلم المرء سقطت الجزية من عنقه ، وسقط الخراج عن أرضه ، وعومل كأىٍّ مسلم آخر .

وقد أخرج أبو داود فى سننه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الخراج على اليهود والنصارى ، وليس على المسلمين خراج » .

وروى أبو داود كذلك : « ليس على مسلم جزية » .

ولا نريد الآن ذكر ما صنعه عمر فى أرض السواد ، أيام كان أهلها كُفَّاراً :

أما بعد إسلامهم ، فمسألة الخراج هذه ، لا ينبغى أن تتجاوز حدود الذكريات التاريخية ، كمسألة الجزية سواء بسواء .

***

للدولة أن تفرض من الضرائب ما تشاء ، فى حدود المصلحة العامة ، وليس هذا بكافٍ مطلقا عن إخراج الزكاة .

ولو صح سقوط الزكاة فى الزروع والثمار لَسَقَطَتْ كذلك فى التجارات ، وسائر الأموال التى تلاحقها الحكومة بالضرائب الباهظة .

بل الحقيقة أن ضرائب الأطيان الآن ، أقل كثيراً مما ينفق عليها من قِبَلِ الحكومة .

ففى ميزانية ١٩٤٩ — ١٩٥٠ كانت قيمة هذه الضرائب ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، بينما بلغت ميزانية مصلحة الرى وحدها ٦,٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

أى أن الدولة ترهق بعض الطوائف الأخرى من دافعى الضريبة ، لكى تحفظ للأرض الزراعية خصبها وصلاحيتها ومستوى إنتاجها .

فكيف تعفى هذه الأرض من الزكاة ؟ ولماذا ؟

إن نص القرآن عام ، فى أن كل مسلم يُؤْتِى الزكاة .

فما الذى يخصص هذا النص من الدلائل الأخرى ؟ .

والسنة صريحة فى أن المسلم لا يدفع جزية ولا خراجا .

فما الذى يحملنا على تضييق مصارف الزكاة ، وتسمية ما يدفعه الفلاح خراجاً ، يذهب إلى المصالح العامة ، ولا ينتفع به فقير ولا مسكين ؟ !

الأوضاع الاقتصادية

لله حقٌّ فى مال الإنسان ، فهو واهبه الأول ، وللجماعة حقٌّ فى مال الإنسان فهى البيئة التى نبت فيها وعاش فى جوها ، وخدمته شتَّى عناصرها ، خدمة مباشرة أو غير مباشرة ، فلها أن تتقاضى ثمن ذلك .

وكما أن حرية الإنسان الشخصية مقيدة بألاَّ يُضَارَّ منها المجتمع ، فكذلك حريته المالية .

فللمجتمع أن يتدخل فى مال الإنسان ، التدخُّلَ الذى تمليه الاعتبارات الدينية والمدنية ، التى يراها لازمة ، لاستقامة الأمور ، وإقرار المصلحة .

ولما كان رَأْيُ الدين : أن « الضرورات تقدر بقدرها » ، فمدى تدخل المجتمع فى مال الفرد ، يضيق ويتسع ، على ما توحِى به مقتضيات الأحوال العامة .

فإطلاق الملكيات أو تقييدها ، ووضع حدٍّ أعْلَى أو أدنى للضرائب على رأس المال أو على الدَّخَل ، وجعل المرافق العامة ملكا للدولة أو للأفراد ، هذه كلها أمور يُخْضِعُها الدين لحاجات الناس وأطوار الزمن .

ولنا أن ننظر إلى حاجات شعبنا ، ومطالب عصرنا ، وأحوال وطننا ، ونضع لأنفسنا ما نشاء من النظم الاجتماعية والاقتصادية ، التى نراها كفيلة بتحقيق أهدافنا الكبرى ، فى ميادين الإصلاح العام .

والشعب — فى الحقيقة — يدفع باليمين ما يأخذ بالشمال . فما يؤخذ منه ، يُرَدُّ عليه وينفق فى مصلحته .

ولا يجوز — ألبتة — أن تستغل أموال الشعب فى النواحى الشخصية لأحد ، لينفق منها على زينته ، أو يسرف فى أبهته .

فما لهذا تشرع الضرائب ويحل جمعها .

والحكومة الصالحة هى التى ترتب أبواب ميزانيتها لخدمة الشعب والنهوض به ورفع مستواه .

وإن كنا — مع الأسف — نرى مسارب المتع الشخصية لا آخر لها ، فيما تنفقه الحكومات ، باسم الشعب .

وخطط الإصلاح التى رسمناها توجب علينا — دينا ودنيا — أن تشكل أوضاعنا الاقتصادية على نحو جديد ، إن كنا حقًّا جادِّين فى دفع غوائل الفوضى والفساد عن بلادنا . . .

وأمامنا صُوَرٌ حيَّة ، وبرامج مدروسة ، وأنظمة مطبقة فى كثير من أقطار الأرض ، يجب أن نقتبس منها ، ما نقيم به العوج ، ونحسم به الداء . ونقترح — على سبيل المثال لا على سبيل الحصر — الحلول الآتية لإنهاء بعض مشاكلنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية :

(١) « تأميم » المرافق العامة ، وجعل الأمة هى المالكة الأولى ، لموارد الاستغلال ، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن ؛ أجنبية أو غير أجنبية ، وعدم إعطاء أى امتياز فرديٍّ من هذا القبيل .

(٢) تحديد الملكيات الزراعية الكبرى وتكوين طبقة من صغار الملاك ، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين .

(٣) فرض ضرائب على رءوس الأموال الكبرى يُقصَد بها تحديد الملكيات غير الزراعية .

(٤) استرداد الأملاك التى أخذها الأجانب ، وإعادتها إلى أبناء البلاد ، وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب ، تحريماً مؤبداً .

(٥) ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية ، التى يعملون فيها بحيث تكون لهم أسهم معينة ، مع أصحابها فى الأرباح .

(٦) فرض ضريبة تصاعُدِيَّة على التركات، تنفق فى وجوه الخير على النحو الذى أشار به القرآن إذ يقول :

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً » .

هذه خطوط صغيرة ، نمهد بها لجعل الأمة طبقات متوازنة ، لا طبقات متعادية ، ونختم بها المآسى المريرة التى تمخض عنها نظام الطبقات المعروف بمظالمه ومخازيه .

ثم يجب بعدئذ أن تمحى الأمية محواً تامًّا ، وأن تعمم مراحل التعليم الابتدائى والثانوى ، وأن يجبر كافة الأفراد على الانتظام فى التجنيد العسكرى وأن تتكافأ الفرص ، أمام أبناء الأمة جميعاً ، فى أخذ نصيبهم من الحياة الصحيحة وأن تلغى الألقاب الجوفاء ، فلا تبقى إلا الألقاب العلمية والعسكرية ونحوها ، وأن تصادر ضروب التحلل الخلقى والإلحاد الدينى ، وأن يعنى بتربية الطفولة تربية طيبة ، وتوجيه الرجولة توجيهاً سديداً فاضلاً .

وأن تتضخم ميزانية الدولة لتنفيذ هذا المنهاج ؛ فلا يجوز أن تكون هناك عوائق اقتصادية ، تحول دون أن تنتفع به الأمة وترتفع .

ولو لم يبق لكل فرد من أفراد الشعب إلا قُوتُه الضرورى ، لَمَا جاز أن تتراجع الدولة فى تحقيق هذا البرنامج ، الذى تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار !! .

أجل فَلْتَفْرِضِ الدول على الأملاك ما تشاء من القيود ، وعلى الأموال ما تشاء من الضرائب ، وعلى الأوضاع الاقتصادية ما تشاء من الأنظمة ، فإن الدِّين ظَهِيرُها فى هذه الوسائل السهلة أو الصعبة ، ما دامت تريد من ورائها

حماية جمهور الشعب ، من أن يسقط فريسة سهلة للاستعمار الداخلى أو الخارجى على السواء . . ! !

وفى سبيل الإبقاء على كيان الأمم ، يهون البذل عن سعة ، والإنفاق فى سخاء . !

حقائق مؤسفة :

كنت أتردد على الريف بين الْفَيْنَةَ والفينة ، بُغْيَةَ الاستجمام ، فما أدركَتْنى قطُّ ، عواطف الشعراء ، حين كنت أعيش بين أهله ، وأخالطهم عن كَثَبٍ .

وما فرَّج عن قلبى ما يُتَوَهَّمُ وجوده هناك ، من الماء والخضرة والوجه الحسن ! .

فإن نظرتى للأشياء واقعية اقتصادية ، لا أثر فيها للخيال ، ولا تطلُّع فيها للجمال . .

الماء ؟ إنه عَكِرٌ ، يشربه الناس ، ويشربون معه شتى الجراثيم . فهو للارتواء وللداء معاً !

والخضرة ؟ إن هذه الزروع اليانعة ، يمشى فى ظلالها المستأجرون الهلكى أو الملاك المدينون ، وعلى ملامحهم من غبار الأرض ، قَتَامٌ حافل بالنُّذُرُ من المستقبل المريب ! وحتى الدواب سرت إليها — هى الأخرى — العدوى ، فهى عِجَاف ساهمة ، برغم نشاط وزارة الزراعة ، فى تلقيحها بالأمصال الواقية ...

والوجه الحسن ؟ أين ترى الوجوه الحسان بين هذا الماء وهذه الخضرة ؟ إن الجمال الإنسانى مُسِخَ فى فتيان الريف وفتياته .

فالـكثرة الساحقة من الرجال والنساء ، فيها صُوَر مجملة ، لأبناء آدم .

أما الملامح التفصيلية ، ففيها تحريف كثير ودمامة والْتِواء ، ترك على الجبين الـكادح عروقا نافرة ، وعلى الوجوه الساهمة غضونا غائرة .

ثم هناك شلل فى نماء هذه الأجسام ، قلّما ترى معه الهامات الفارعة ، والعضلات الحافلة .

ولولا إلغاء الجيش المرابط ، لرأينا فى شوارع المدن «عينات — نماذج — » كثيرة لهذه التماسة السائدة ، خفف من شدتها بعض التجميل والتصحيح ، الذى يفرضه النظام العسكرى .

تلك هى حال الريف . حال المستودع الذى تأخذ منه الدولة الرجال والأموال . وتترك أسباب الفناء تَعملُ فيه عملها الشنيع . .

فإذا تركت الريف إلى المدن ، وجدْتَ مظاهر الرخاء والنعمة منتشرة هنا وهناك ، ولـكن حظ المصريين فى هذا كله ضئيل . إذ أن الميادين والشوارع الـكبرى تـكاد تـكون وقفاً على رءوس الأموال الأجنبية .

ولسنا ننفى أن للوطنيين حظًّا فى هذه الأعمال والمشروعات الضخمة .

غير أن الأجانب يظفرون منها بنصيب الأسد .

ولا تزال الأحياء الوطنية أمثلة باقية ناطقة بالفوضى العمرانية ، والهون والهوان المـادى والأدبى الذى تعيش فيه جمهرة الشعب .

وكم فى الغرف الحقيرة ، والأزقة المظلمة ، والخرائب المتهدمة ، من كفايات مقبورة ، وعزائم مقهورة ، ونفوس نَسِيَتِ النور من طول ما قبعت فى الظلام .

عندما أزور « مصر الجديدة » يلفت نظرى ما يبدو على هذا الحى الفخم من سعة وجمال ونظافة ، وما يستمتع به أهلوه من راحة وطمأنينة ، وتذوُّق للحياة الطيبة .

وليس هذا ما أريد أن أسجله ، إنما الذى أريد تسجيله ، أنه — إلى جانب

هذه القصور الشاهقة ، والمبانى الرائعة — توجد أرض أخرى ، عليها بيوت كأوكار الثعالب ، وفيها وحشة كأنما خُلِعَتْ عليها من صمتِ القبور .
يقطنها أقوام ، عضَّهم البؤس ، ولَفَّهم فى أرديته الكئيبة .
وهذه الأرض — بما عليها من جدران وقطعان — تسمى « عزبة المسلمين » .
والحق أن هذه التسمية تترك فى القلب ألماً مُمِضًّا وأسفاً عميقاً ! . وتجعل الرجل يخجل من نفسه ، ومن جماعته ، ومن دولته ... وتجعله يشعر بما فى هذه التسمية من غمز وتحقير .
لا لمسلمى مصر فحسب ، بل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .
ولعل سر هذه التسمية ، أن شركة أجنبية ، هى التى تولَّتْ بناء الجزء الفخم فى الحى الفخم ، تاركة لنا أن نعمر عزبتنا الحقيرة بأيدينا ، إن استطعنا التعمير .

ونحن مذهولون عن ذلك ، لأننا مقيدون بميراث ثقيل ، من سوء الفهم فى الدين والدنيا جميعاً . . مشغولون عن التعمير المادىّ والأدبىّ ، بالثرثرة الإصلاحية ، والألاعيب السياسية ، والمشاغل الشخصية .

ولا علينا أن تكون منزلتنا الاجتماعية ممثلة فى عزبة إلى جانب قصور . فإن منزلتنا السياسية فى العالم ، منزلة الخرب من المعمور ، أو الظلام من النور . .

***

وقالوا : إن الحكومة صحَّ عَزْمها على مكافحة الجهل والفقر والمرض .
وسواء كان الغرض من المكافحة تأمين البلاد ضد الشيوعية . أو قطع حُجَّة الإنجليز فى صلاحية مصر للاستقلال . أو الرحمة الحقيقية بعباد الله ، من أن تأتى على بقيتهم أخطار هذا الثالوث الوبيل .

أيَّامًا كان الأمر ، فإن هذا عَزْم نُسَرُّ به ، ونرجو أن يأخذ طريقه إلى الحياة والنماء .

لكن بوادر التنفيذ إلى الآن توحى بأن الأمر هَزْلٌ لا جِدٌّ .

والدعاية التى سبقت مشروع المكافحة ، لم تتمخَّضْ عن أمر ذى بال .

فقد وكل إلى « الروتين » الحكومى المعتاد ، وإلى بعض المجالس والمصالح المعروفة ، أن تقوم على إنقاذ البلاد من أخطار هذا الثالوث الفتاك .

ومع أن الحالة تحتاج إلى تجنيد عام ، وإلى تسخير أبواب الميزانية — جلها إن لم يكن كلها — لإنقاذ الوطن من هذه الأعداء الداخلية المتغلغلة فى ترْبَتِه ، من قديم .

إنهم لو أَلَّفُوا وزارة مختصة بعلاج هذه المشاكل ، على نسق وزارة الشئون الاجتماعية ، ما استبشرنا بذلك خيراً

فمشاكلنا أعقد من ذلك وأعصى ، على مثل هذا العلاج الضعيف .

غاية ما سيحدث ، أن أموالا ترصد ، وموظفين يعينون ، ومشروعات يعلن عنها ، ثم يبقى الجهل والفقر والمرض ، كما بقيت أوضاعنا الاجتماعية — مختلة ، لم تصلحها الوزارة التى لُفِّتْ باسمها ، وكُوِّنتْ لإصلاحها .

وعند ما يذهب المريض إلى طبيب يشخص له الداء ، تشخيصاً مغلوطاً ، ثم إلى صيدلىٍّ يُرَكب له الدواء ترَكيباً مسموما .

فأنى يجىء الشفاء ، وكيف تنتظر النجاة ؟ ؟

إن الحكومات المتعاقبة ، تتجاهل مصدر الشَّرِّ وأساس البلاء ، وهى تبذل الأموال ، وتسخر الرجال لغسل الظل المرسوم على الأرض ، ولا تفكر فى أن تزيل الجسم ، الذى يلقيه إلقاء ويثبته إثباتاً . . .

وقد تنكمش — لعوامل خارجة — ظلال الأحزان التى تغمر أبناء هذا الوادى ، ولكنها لن تزول ، إلا إذا زالت الأوضاع المعوجة ، وإلا إذا طلعت الشمس ، فلم تجد أشعتها عائقاً ، يَرُدُّ عن الناس أسباب الضياء وا . .

المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين

جهد ضائع :

حيث يوجد الهوان المادىّ والأدبىّ ، لا يُرجَى خير ، ولا يؤمن شر .

فالإنسان المغلق الخامل المحطَّم ، لا ينتفع بالدين ، ولا ينتفع به الدين .

ما الذى يفيده الإسلام من رَجُلٍ طُمِسَتْ حياته ، وشاهت مَلَكاتُه ، وعاش على ظهر الأرض حَفْنَةً من ترابها ، أو قِطْعَةً من صخورها ؟

إن الإسلام لا يستفيد شيئاً من هذا الشخص . بل إنه يُضَارُّ به ، ويَهُونُ فيه .

والإناء الملوَّث يُزْرِى بأطهر السوائل ويبخس قيمتها .

كذلك الشعوب العاجزة الكسول ، تحط من مكانة الأديان التى تعتنقها ، وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها . ! !

وكما أن الدين لا ينتفع بتابعه الهيِّن ، فإن التابع الهين لا يحسن الانتفاع مما سيق إليه ، من مواريث نفيسة ، ولا مما أحيط به من مبادئ غالية ، كالجاهل الذى يلقى نفسه فى مكتبة حافلة ، أو الممعود الذى يواجه مائدة مفعمة .

بل إن الأتباع الحمق ، كثيراً ما يفرضون سفههم على أسمى الحقائق .

فبدلا من أن يرتفعوا معها إلى الْقِمَّة ، يهبطون بها إلى السفوح ! ! .

ومن ثَمَّ يجب أن نقرر هذه الحقيقة ، فى علاجنا لمشاكلنا المعقَّدة :

إن شعوب الشرق الإسلامى تحتاج — قبل أن تفهم الإسلام وقبل أن ينتظر منها إعزاز الإسلام — إلى جهود جبَّارة ، لرفع مستواها المادىّ والأدبى .

أى إلى تصحيح إنسانيتها أولا .

حتى إذا كوّنّا الإنسان الذى يعقل ما يُخَاطَبُ به ، ويعرف واجبه نحوه ، قلنا له : انصر ربّك ونفسك ، إذا شئت الحياة الكريمة فى يومك وغدك .

أما جهود المصلحين — قبل اتخاذ هذه الخطوة — فهى أمواج من الماء ، تتدفّق على صحراء من الرمال . . هيهات أن يكون لها ثمر ! ! .

ما الدين :

والدين فى حقيقته ، ليس إلا إكمالا لمشاعر الإنسان ، وتصحيحًا لمواهبه .

فهو عقل يحسن التفكير ، وعين تحْسِن النظر ، وأُذن تُحْسِن السمع ، ويد تحسن العمل . . .

والمؤمن — على هذا — إنسان ناضج الفهم ، والتأمل ، والحكم على الأمور .

إنسان جيد الإنتاج والآثار والتصرفات . . .

فإذا اضطربت هذه المعانى فى نفسه ، اضطرب معها مَصْدر الإيمان فى قلبه ولُبِّه ، وتقلّصت معها حقيقة إنسانيته .

ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معا ، حتى تدمغ بوصف القرآن لها .

« إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ » .

والمرء يستحيل دابة ، يوم يموت فيه عقله المفكر ، وترتكس فيه مشاعره اليقظة ، فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، لأنه

ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم ، حواس مسخرة فى أغراض الحياة الدنيا فقط .

وأمثال هؤلاء هم — مع الأسف العميق — قوام الجماهير الغفيرة ، التى أعماها الجهل ، وأوهاها المرض ، وأهانها الفقر ، قوام الْكُتَلِ الضخمة من البشر ، الذين يَزْخَر بهم الشرق ، ولا يتقدم بهم إلى الأمام خطوة ، بل يتأخر بهم خطوات ، أوهُمُ التراب ، الذى تبرد فيه حرارة الإسلام وتتبدد قواه ، كدين موجه فعال .

هذا الهوان المادىّ والأدبىّ ، لا ينبغى حُسْبَانه دينا ، أو ظِلاًّ لدين .

فهو عار ولدته بيئات آثمة لا تتصل بالدين إلا ادِّعاء ، ولا يتصل بها الدين إلا مُشوَّها مظلوماً مفترى عليه .

ولكى نطمئن إلى وجود ديانة صحيحة وأتباع محترمين ، يجب أن نسارع إلى مَحْو كل أثارة للفقر والجهل والمرض ، وأن نخلق جيلا جديداً ، يصلحُ — بفطرته — لأداء الرسالات الكبرى ، وحمل أعبائها .

رجال ورجال

كلما نظرت إلى الرجال والنساء ، فى الريف البائس المكروب ، أو فى زحام الأحياء الوطنية بالمدن ، أو حيث أعمل لوعظ الناس (!) بالمساجد وأشباهها من الأندية الدينية — كنت أرى أن هناك حلقة مفقودة ، لا بد منها ، ليتصل هؤلاء الناس بالدين ، اتصالا مُجْدِياً عليه وعليهم .

فقد يحدث أن تبذل وقتاً ، فى تطبيب دابة جريح ، وأن تبذل الوقت نفسه فى إصلاح سيارة عاطلة ، أو طيارة مهيضة .

ولكن النتائج التى تحصل عليها من وراء هذه الجهود ، تتفاوت تفاوُتاً كبيراً .

والذى يركب الدابة بعد شفائها ، غير الذى ينطلق بالطائرة بعد إصلاحها .

والتبشير بالدين بين الشعوب البليدة الوانية المترنِّحة ، قد يكسب الدين عدداً من الأنصار الكسالى ، أو الأتباع السكارى .

فهل هذه الثمرة ، هى التى تحصل عليها ، لو جئت من بداية الأمر ، فعملت على فتح العقول المغلقة ، وإنماء المواهب المشلولة ، وإعزاز النفوس الكسيرة ، وإبراء الأكمه والأبرص ؟

فإذا قدمت للدين بعد ذلك أحداً ، قَدَّمتَ قُوَّةَ ، يعمل بها ، لا عقبةَ يضطرب حيالها . . ! !

إن النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، وَجَّه دعوته الأولى للعرب ، وهم — على كُفرهم الموروث — قوة لا يُستهان بها فى موازين الرجولة .

أجسام لم تستنزفها الأمراض المتوطنة ، وكفايات خُلقية عارمة ، لمَّا كانت فى جانب الضلال ، جعلته مرهوب المدوان ، فلما نقلها صاحب الرسالة العظمى

من الغىّ إلى الرشاد ، جعلت الحق مهيباً ، وطَوّفت به فى أقطار الأرض ، تصارع دونه الأبطال ، وتزلزل أمامه الجبال .

وأمام الشعوب الإسلامية الآن مراحل من صحة الأبدان والأخلاق ، ومن كفاية العمل والنظام ، ومن روعة الإنتاج وإخصاب المواهب . . .

مراحل طويلة يجب أن تقطها على عجل ، حتى تقف على قدم المساواة ، أمام شعوب الغرب الكافرة بالإسلام ، بل المتمردة على الديانات جملة .

إن هذه الأمم المحسوبة على الإسلام ، لن ترفع به رأساً ، ولن ترفع له عَلَماً ، ما دامت تعيش فى هذا الدرك من الهوان الإنسانى .

قيمة العقل فى الدين :

إن حِدّة الذكاء ، ويقظة الفكر ، واستنارة الرأى ، عناصر لا بد منها فى تكوين الإيمان الصحيح ، فإن الإيمان معرفة بلغتْ حدّ اليقين ، وانتفت معها الريبة .

وحيث لا يوجدالإدراك الواضح ، والفهم الناضج ، يصبح اليقين غير ذى موضوع ! ! .

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البُلهاء ، أو نغمط الحمقى حقهم — إن صحت لهم حقوق — بل إننا نستوحى هذا الحكم ، من نصوص القرآن الكريم نفسه .

فالعقول الذكية وحدها هى التى تستطيع اختراق أسرار الكون ، ومعرفة آيات الله فى شتى الأمكنة والأزمنة .

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . . . « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

والعقول الذكية وحدها ، هى التى تميز الحق من الباطل ، وتعرف حقائق الوحى ، من نزغات الهوى وتلفيق الضلال :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

والعقول الذكية وحدها ، هى التى تستفيد من عِبَر الماضى ، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل ، وقصص الأبطال أو الأنذال ، من المصلحين أو المفسدين : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . . .

ولا تكون الحكمة فى معالجة الأمور ، والدقة فى الحكم على الأشخاص والمسائل ، والبصر بالمقدمات والنتائج ، إلا لأصحاب العقول الراجحة ، والمدارك الواسعة ، والمواهب الرائعة :

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَاب » .

وتربية العقول ، وإذكاء المواهب ، وتفتيق الملكات الإنسانية ليس أمراً هَيِّنا .

فمراحل التعليم فى المدرسة ، ومراحل التجريب فى الحياة ، واستيراد الأفكار البعيدة ، وضم مالا نعرف إلى ما نعرف ، والنظر فى الجديد نظرة تلطُّف وإيلاف ، لانظرة جمود واعتساف ، والتَّطويف فى آفاق العوالم المادية والأدبية .

هذه جميعاً ، وسائل لترقية العقل الإنسانى ، ثم هى بَعْدُ وسائل العقل السليم لمعرفة الله ، وحُسن الإيمان به ، والإفادة من دينه .

إن عمل العقول الكليلة فى آيات الوحى ، هو عينه عمل الحشرات

القارضة فى أوراقه ، عند ما يَدِبُّ فيها البلى ، تتلفها ولا تعرفها ، وتظلمها ولا تنصفها .

وذاك سر التَّدَهْوُرِ الاجتماعى ، بين جماهير الأميين من المسلمين وغيرهم .

وما أبعد هذه الكتل الأمِّية عن الدين ! مهما زعموا لها من إيمان العجائز ! ! .

نعم قد يكون هناك من ذوى العقول القوية من يَحِيدُ عن مناهج الاستقامة ، وأصول الفضائل ، ومن يتمرد على تعاليم الدين .

بَيْد أن هذا يُقلِّل من قيمة العقل ، ولكنه يبين لنا خطورة الشهوات الجامحة ، والأهواء التى قد تصرف المرء عن الحق وهو يعرفه .

ثم إن محاربة الجهل أن يطغى على العقل ، لاتغنى عن محاربة الفساد أن يتطرق إلى الفؤاد .

والنَّكْسَةُ التى أصابتنا فى تاريخنا الطويل ، جاءت من فساد عقول العامة ، ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة .

فإذا أصلحنا العقول بالتعليم الشامل ، صَحَا الشعب ، فلم يبق أمام فاسدى الضمائر مُتَّسعٌ للبقاء .

ذلك أن الشعوب المتعلمة قوة ، يجرف تيارها القذى والغثاء :

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ » .

فَلْنَعْمَلْ — على عجل — لرفع المستوى العلمى ، فهذه وحدها هى السبيل .

زعموا أن ظريفاً ، سمع رجلا يشكو إلى الله عِلّته ، ولم تكن علته من داء واحد ، فأخذ يسأل الله أن يشفي له بصره الرمود ، وبطنه الممعود ، وقلبه المضطرب وقدمه المختلج و . و .

فقال له الظريف : يا أخي بدلاً من أن يُرَقِّعَ فيك هذا كله يأخذك ويخلق غيرك !

هذه الفكاهة التي أداروها حول المريض المسكين ، ذكرتها في نفسي عقب إلقاء عظة طويلة على المصلين في مسجد السيدة زينب ، وبعد نظرة عميقة إلى العلل النفسية والعقلية والبدنية ، التي تعمل عملها في جمهور هذه الأمة ؟

إن هناك كثيرين من أبناء الجيل الحاضر يَعِزُّ على الإصلاح حالهم ، لأنهم مصابون من نواح شتى ، ولأن الالتواء الذي حدث في نظرتهم إلى الحياة ، يكاد يصبح فيهم خليقة ثابتة ، فأنت لا ترقع خرقاً حتى يظهر لك فتق جديد .

وقديماً قالت امرأة عجوز :

أضحى يمزق أثوابي ويضربني   أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا ؟

إنني أنصح بالاتجاه إلى الناشئة ، والعناية بغارسها ، حتى يتم نماؤها على خير الوجوه ، فإن الأجيال التي مرنت على الظلام تستغرب النور .

وما أصدق قول الله عز وجل :

« فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ » .

نتائج محزنة

يربو عدد المسلمين في العالم ، على عدد اليهود أربعين ضعفاً .

وقد مثَّل هؤلاء اليهود مع المسلمين ، الرواية التي يمثلها اللِّص العادي مع صاحب البيت الوادع .

وبدلا من أن يقاد المجرم إلى التحقيق ، وينتصف منه لصاحب الحق المهضوم ، فإن اللصوصية الدولية أهدرت الحق الواضح ، ومن ورائه أربعمائة مليون مسلم ، وآزرت الباطل السّافر ، ومن حوله عشرة ملايين يهودىّ .

لأن معسكرات السياسة الدولية القائمة على المنافع المحضة ، استهانت بالكثرة المُحِقّة ، ولم تحرص على كسبها ولم تبال بنبذها .

على حين خطبت وُدّ اليهود ، وسترت مخازيهم وزوّقت باطلهم وحاربت فى صفهم ! ! !

ولماذا كل ذلك التَّجنّى والجحود ؟ لأن القلة اليهودية التى تحدَّتْنَا — على كثرتنا — تسلَّحت بآخر ما وصل إليه العقل الإنسانى ، من قُوًى علمية ومادية ، فأصبحوا بين أحزاب العالم المتحفزة موضع رجاء وخوف ، على حَدّ قول الشاعر :

إذ أنت لم تنفع فَضُرّ فإنما يُرجَّى الفتى كيما يَضُرّ وينفعا

فأما المسلمون ، فلا تزال أحوالهم العامة ، تجعلهم موضع الأسى من الصديق ، وموضع الشماتة من العدو .

ولا ريب أن هذا الظلم الفادح ، الذى أوقعته بنا السياسات الكبرى قد هزّنا هزًّا ، واستيقظنا منه على فارعةٍ أثارت الحفائظ ونبّهتْنَا إلى ما ينبغى عمله ، لضمان مستقبلنا بعد ضياع حاضرنا .

فَلْنَذْكر أن الإسلام يجعل المسلم أهلا للنصر ، يوم يكون ذلك المسلم أرجح فى ميزان الحق ، من عشرة آخرين .

« إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ » .

والكلمة الأخيرة فى الآية هى مفتاح الموقف .

فعند ما تـكون النفسية الإسلامية والعقلية الإسلامية أعظم اتّساعا ، وأطول باعاً وأسبق فى ميدان المعرفة ، وأقدر على إنشاء الحضارة ، وأرسخ فى حماية الْمُثُلِ العليا ، وعند ما تـكون الأمية العقلية والاجتماعية فى جانب غيرنا ، لا فى جانبنا ، وعند ما نوصف بالذكاء ويوصف عداتنا بالغباء ويقال فينا : إننا نفقه ، وفى خصومنا : إنهم لا يفقهون كما تنص الآية الكريمة ...

عندئذ فقط نحل قضايانا بأيدينا ، ويلزم الحياة أن تتبع قواعد العدل ، ثم تمنو الحياة لنا طوعاً وكرها ، لأن البقاء الأصلح حتما . . ! !

وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة ، لن يقدر المسلم أن يقف أمام عشرة بل سيحدث العـكس ، وسينتصب اليهودى أمام عشرة منا . . . لا . بل إنه قد وقف — فعلا — أمام أربعين . . . ! ! !

لماذا ؟

ولك أن تسأل دَهِشاً : لِمَ تـكون هذه أحوالنا وأوصافنا ؟ ولِمَ تمضى سُنَّةُ الحياة فينا على هذا النحو القاسى ؟ أَخُلِقْنَا من طينة غير طينة هؤلاء الذين يسودون الدنيا ويقودونها . . ؟

والجواب كلا . . . فسادة اليوم ، هم عبيد الأمس ، وعبيد اليوم هم سادة الأمس

والنفس الإنسانية تذوى وتنمو ، وتنـكمش وتمتد ، على حسب التربة التى تحيا فيها ! ! ولو أتيحت لشعوب الشرق الفرص التى أتيحت لشعوب الغرب لَبُدِّلَتِ الأرض غير الأرض .

ألست ترى أرجل البشر تـكبر على طبيعتها هنا وهناك ؟ حتى إذا ذهبت إلى الصين — حيث يلبس البعض أحذية من حـديد — وجدت أقداماً ضامرة ، شلّ الحديد نماءها منذ الطفولة ! !

إن لدينا أنظمة ، هى وأحذية الحديد الصينية سواء . . أنظمة تركت وراءها حطاماً من الأجيال الهامدة ، التى عاشت عمرها فى صراع مع الضرورات المذلة .

ومثل هذا الصراع يموتُ فيه المنهزم موتاً ماديًّا ، محروماً من العافية والاستقرار ، ويموت فيه المنتصر موتاً أدبيًّا .

فأنى الترقى والازدهار لمن يقنع فى حياته بنيل ضروراته ؟

أنظمة تجعل الحياة فى المجتمع دون الحياة فى الغابة .

فإن الطيور تغادر أعشاشها ، سعياً وراء رزقها ، فتغدو خماصاً ، وتروح بطاناً ، فنتيجة سعيها تكون مكفولة .

فكيف الحال فى مجتمعات يرهق العامل فيها نصَباً ، ويقضى حرماناً . ؟

أجل . . قد تكون آجال الحيوانات فى الآجام رهنا بجوع السباع وشبعها ، أفتحسب الحياة فى بعض ربوع الشرق أفضل من ذلك ؟

لا تزال هناك أمم تعطى حق الحياة لكبارها أولا . . ثم لصغارها ما عنت وجوههم لهؤلاء الكبار .

وما استغنى الكبار عن افتراس هؤلاء الصغار . وإلا فالحكم للسيف والنار ، ولمن يملك السيف والنار .

عن العلل :

البيئة الحرة الكريمة ، هى التى تعيش فى حضانتها الإنسانية الصحيحة ، وهى التى يُنتظَرُ منها أن تُنبِتَ النفوس القوية ، والعقول الذكية ، والأجسام الفتية . ولن تجد جراثيم الهوان المادّىّ والأدبىّ بقاء لها فى مثل هذه البيئة .

ففى الجو الصَّحْو ، والأرض المشمسة ، تموت الدِّيدان ، وتنقرض الأوبئة .

لـكن الاسترقاق السياسى والاقتصادى ، عدوُّ البشرية الأول ، وسرطان الأمم المعذبة .

وفى ليله الطويل ، لا تلمح العقول أشعة المعرفة ، ولا تدرى الطباع معنى الـكرامة ، ولا تشرب النفوس حب الخير .

وأنت إذْ تبحث — جاهداً — عن الفرد الذى تعلّم فى الغرب فاخترع ، أو الذى انتخب حاكمه ثم جاء دَوْرُه هو لحكم ، إذ تبحث عن هذا الفرد فى ظلِّ الاسترقاق السياسىّ والاقتصادىّ ، تجده تائهاً كاسف البال ، يحسب أن وظيفته فى الحياة لا تَعْدُو العيش عَلَى هامش الفلاحة فى أرضٍ ملـكته ولم يملـكها ، أو الاحتراف فى أشغال بدائية لا تُدِرُّ إلا الـكفاف .

ويسند هذا الهوان تديُّن فاسد ، خرج من الأرض ، ولم ينزل من السماء .

وليته خرج من أرض نقية ، فـكان فـكراً سليما ، بل خرج من أرض سبخة ، فـكان عبثاً رجيما .

هذا التديُّن المـكذوب عَلَى الله عز وجل ، كانت مهمته أن يخفف من وقع الاستبداد السياسىّ ، والطغيان الرأسمالىّ عَلَى نفوس المظلومين والمحرومين .

حتى شاع بين الـكثيرين أن الدِّين مُخدِّرٌ للشعوب . وليس أبعد عن الصدق من هذه المقالة الجائرة .

عَلَى أن الدين — وقد أصيب بهذه التهمة لأسباب شتى — بحاجة إلى من يمسح عنه عاره ، ويرد إليه اعتباره ، ويصيح فى المشرقين والمغربين : إن الدِّين عوْن الشعوب عَلَى نيل حقوقها ، وكسر خصومها وحفظ حرّياتها ، وضمان كراماتها .

بلى . . . ونحن موقنون بأنه فى الوطن المغلوب عَلَى أمره ، المنهوب خيره ، الممتهن أهله ، لا عمل للدين — أولاً — إلا رد الحقوق ، ومنع العقوق ، وكسر شوكة المعتدين ، وإذلال كبرياء الظالمين .

إن الاستبداد السياسيّ والافتيات الرأسماليّ ، والتديُّن الصناعى ، آفات قديمة فى الشرق .

وإنها لسفالة لا قرار لها . . . أن يسخر الإسلام فى إبقاء هذه الآفات .

إن بعض الجماعات المتدينة تحسب أن قوام الدِّين هو الإيمان بالغيب ، واليقين فى الآخرة ، والعبادات الخاشعة ، والتعاليم الروحية . . وطائفة أخرى من الأحوال الشخصية والأحكام الفردية المحددة .

وهى تنشط لخدمة الدين فى هذه الدائرة الضيقة ، ولو نجحت فى بلوغ أهدافها هذه مع بقاء الديكتاتورية السياسية ، والرأسمالية الاقتصادية ، فإن نجاحها وإخفاقها سواء .

وسيظلّ الدِّين تعاليم فى ورق ، ورقماً عَلَى المـاء . ما بقيت الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الـكانزة ، تفسد فى الأرض ، وتسفك الدماء .

كيف ينظرون إلينا ؟

لئن كانت الفوضى الاقتصادية قد صدعت البناء الاجتماعى للإسلام — كدين عام — وشوهت حقائقه الأولى فى عقول أبنائه وقلوبهم — كعقيدة خاصة — فقد أصابت كذلك الوضع السياسىّ للمسلمين ، بما جعلهم أعجوبة فى العالمين .

وإنك لتستطيع أن ترى مصداق ذلك ، فيما تقرأ وتسمع كل يوم ، مما يصيبنا فى محافل العالم الـكبرى .

وقد كنا نرجو — وخصومنا كثير — أن يدور الصراع بيننا وبينهم على أسس من الاحترام المتبادل .

أجل ، فقد يكون لك عدو تـكرهك مواهبه على تقديره . وقد يكون لك صديق تـكرهك تفاهته على تصغيره ! ! فأين — يا ترى — ينزلنا العالم فيما ينشب بيننا وبين غيرنا من خلاف ؟

أنقل هنا كلمة كتبت على هامش السياسة الخارجية بصحيفة يومية ، وفيها الجواب على هذا السؤال :

« إن الشرق الأوسط ما زال موضع ازدراء الأمم الراقية ، رغم غناه بالمواد الأولية الهامة ، ورغم مركزه الممتاز فى عالم التجارة .

وسبب ازدرائه : أن الحكومات فى الجزء الأكبر من رقعة الشرق ، لا تهتم بمشروعات الإصلاح المنتجة ، قَدْرَ اهتمامها بالمشروعات التى تعود على الأقطاب ، بدعاية كبيرة ، أو شهرة واسعة ، أو نفوذ متسع النطاق

أما التعليم والريُّ ، وإنشاء خزانات المياه لوقت القحط ، والانتقال من زراعة المطر إلى زراعة الآبار ، ومشروعات توليد الكهرباء ، وصناعة الأسمدة ، فإنها ما زالت تدرس منذ عشرات السنين ، ثم توضع على الرَّفِّ ، ثم يعاد درسها ونَفْضُ الغبار عنها ، لتعود مرة أخرى إلى الرَّفِّ ، وهكذا حتى يئس العالم الشرقى من كل دعاية تذاع أو تكتب فى الصحف ، حول مكافحة الجهل والمرض ، والأمية والحفاء .

ومن أعجب الأمور ، أن للشرق الأوسط مركزاً استراتيجياً ممتازاً .

ففى رقعته تقع أكبر الموانئ والمطارات ، وسكك الحديد الضرورية لأى دفاع أو هجوم .

والدول الغربية مقبلة على صراع رهيب ، سيكون لهذه المرافق فيه دور خطير ، فهل استفدنا من هذا المركز الممتاز ؟ . والجواب على ذلك هو : كلا .

وسبب هذا المركز الضعيف ، أننا مختلفون فيما بيننا على أمور ثانوية ، تاركين الدول الاستعمارية تستغل مواردنا الاقتصادية ، وقواعدنا الحربية ، وطرق مواصلاتنا ، ومطاراتنا ، وموانئنا ، بدون أجر أو ثمن معقول .

بل بدون أى ميزة كبيرة نستفيد بها فى معالجة تأخُّرِنا الاقتصادىّ والاجتماعىّ الحالى .

وإلى جوارنا دولة ضعيفة ناشئة ، مؤلفة من مليون ونصف مليون نسمة — هي إسرائيل — فرضت على أسطول بريطانيا أن يخرج من قاعدة حيفا ، فأخرجته وفرضت على السلاح الجوى البريطانى أن يخرج من مطار (اللُّد) وغيره من المطارات الفرعية الأخرى فخرج ، وفرضت على الجيش البرىّ البريطانى أن يخرج من معسكرات صرفند ، وعكا ، وغَزَّة ، وحيفا وغيرها فخرج .

أما الدول العربية التى تمثل خمسين مليوناً ، فإنها ما زالت متفرّقة مختلفة ، ولهذا تعجز عن إخراج القوات البريطانية من الحبّانية فى العراق ، ومن قواعدها فى شرق الأردن ، ومن منطقة « فايد » ! ! .

بل أعجب من هــذا كله أن لنا فى بنك بريطانيا نحو ٣٠٠ مليون من الأرصدة ، لا نعرف كيف نستردها منها ، ونطلبها قطرة بعد قطرة ، كأننا نسألها إحساناً .

أما إسرائيل فقد عقدت مع بريطانيا اتفاقا ، يسهل لها سبيل الحصول على أرصدتها الاسترلينية ، رَغمَ أنَّ مصر أهم لبريطانيا — بمواردها ومركزها الحربىّ — من إسرائيل ! ! .

بل هذه هى مسألة « السودان » ، والإنجليز يعاملوننا فيه معاملة الأجانب ، على حين يفرضون على أشقائنا سكان الجنوب أن يعاملوا الإنجليزى معاملة الوثنى لأصنامه ، ويحرمون عليه امتيازات يبيحونها للإنجليزى ، بل يمنعونه من دخول أماكن يدخلها سادته الإنجليز . . .

ويزرع البريطانيون فى الجزيرة قطناً ينافسون قطننا به ، ومع ذلك فإننا ما زلنا نرفض الاتّجار مع دولة كبيرة أخرى ، وما زلنا نعتمد فى بيع قطننا على (لانكشير) ! ! .

هنا وهناك :

إننى أجزم بأن الأنظمة الاقتصادية السائدة فى الغرب ، تعتمد فى — بقائها — على قبول الشعوب لها واطمئنانها إليها .

ولو أنها كانت خالية من المزايا التى تجملها كذلك لسقطت من زمان بعيد ، فإن المرتبة التى وصلت إليها حقوق الإنسان وحريات الشعوب فى هذه البلاد ، لا تسمح لنظام مّا أن يبقى طويلاً برغم أنف الذين يعيشون فى ظله ، على عكس الحال عندنا .

فإن الناس كثيراً ماتكون قلوبهم ضد الحكومات ، ولكن أعمالهم معها .

وقديما قيل « الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع أعدائه ! ! » .

وتلك الحال المنكرة ، هى بعض آثار البطش السياسى الذى سادنا فى القرون الوسطى ، ولا تزال بقاياه تترك فى نفوس الجماهير الاستكانة ، وتطبع الرأى العام فى أغلب أطوار يقظته ، بطابع الإنكار القلبى ، أو الاستنكار السلبى فحسب . . . لما يؤلمه ! .

ومهما اختلفت المذاهب الاقتصادية المنتشرة فى الغرب ، وتنوعت إلى رأسمالية ، أو اشتراكية ، أو شيوعية ، فإن هناك عاملاً مشتركا بين هذه المذاهب كلها ، يجعل أصحابها يتمسكون بها ، أو لايرون بأساً من الإبقاء عليها ، وهذا العامل مفقود فى الأحوال الاقتصادية التى تقوم بيننا .

وتستطيع أن تجد وجوهاً من الشبه القريب بين الحياة فى روسيا الشيوعية ، والحياة فى أمريكا الرأسمالية !! .

على حين تجد الصلة واهية ، أو منفية بين الرأسمالية فى أمريكا ، والرأسمالية فى الشرق الإسلامى وغير الإسلامى .

ففى أمريكا — كما فى روسيا — لايعرف هذا الركام الغليظ من الجهل والفقر

والمرض، ولا توجد البيئة التي تخلق الرذائل خلقا، وتطرد الفضائل طرداً .

وهناك لا تقيم الفوارق الآثمة أيّ فاصل بين طبقات الأمة الواحدة .

فإن رئيس الولايات المتحدة، جاء من طبقة الشعب، التي جاء منها رئيس جمهوريات الاتحاد السوفيتي . . .

أما في مصر، والهند، والحجاز، والعراق، فالأمور تجرى على النحو الذي أسلفناه .

ولا يجوز أن نقارن بين رأسمالية الشرق ورأسمالية الغرب فإن البَوْنَ شاسع والمسافة بعيدة .

إن الأحوال الاقتصادية لاتزال في الشرق تحمل طابع عهود الإقطاع، ولا تزال المعاملة بين مواطن ومواطن مثله، كالمعاملة بين الإنجليز والهنود، أو بين الأمريكان والزنوج !! .

والإسلام لايؤيد نظاما اقتصاديًّا بعينه، ولا يخاصم نظاماً اقتصادياً بعينه . إنما يحارب ويسالم، مايكون من النظُم، بحسب مايتولد منها، وما ينشأ عنها، وما يصيب الشعوب من خيرها أو شرها .

إن الدين كالنسيج الخام، يلبس الناس منه مايحفظ أجسامهم ويزين هيئاتهم . وقد تختلف طرائقهم في كيفية التفصيل وأسباب التزين، ولكن لايجوز على أية حال أن يعروا عنه .

والأنظمة الاقتصادية العامة، قد تختلف نظراتها وتقديراتها لمصالح الجماعة . غير أن ذلك لايعنى أن نطرح الدين جانباً ! فما قيمة الإنسانية إذا جحدت ربها وتمرّدَتْ على خالقها ؟ ؟ .

يجب أن ننتفع بالدين في بناء أمةٍ تتوافر فيها التربية النفسية العميقة، والعدالة الاجتماعية الشاملة، والديمقراطية السياسية المنظمة، وبذلك وحده يأخذ الشرق الإسلامي طريقه إلى الحياة .

كلمة الختام

للثقافة جيش غير منظور ، يصل إلى أهدافه المرسومة فى سكينة وسلام .

وإنى أود أن أسلح القارئ الكريم بهذه الأفكار ، وأملى ألاَّ يقف عند حدود المطالعة العابرة . . . ثم الموافقة الباسمة . . .

فإن من الثقافات ما نعدُّه ترفاً عقليا ، ويكون حَسْبُ القارئ منه أن يقف هذا الموقف . . .

أما إذا تعلق الأمر بحقيقة دين كالإسلام ، ومستقبل أمةٍ زحمت التاريخ وشغلته قديماً وحديثاً كالمسلمين ، فالأمر أخطر مما نتصور !

هو عندئذ ضرورة ماديَّة وأدبية ، تجعل من القارئ شريكا للمؤلف ، وتحشدهما معا لخدمة قضية مشتركة ، يتقاسمان — جميعاً — أعباءها وتبعاتها !!

فلعل الذين يقرأون معى ، يقومون بهذا الحق ، ويمدون شعاع الفكرة ، ويشاركون فى إبلاغها الغاية ؟

فهرست

للمؤلف

1 – الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
2 – الإسلام والمناهج الاشتراكية
3 – الإســلام المفترى عليـــه .
4 – الإسلام والاستبداد السياسى .
5 – تأملات فى الدين والحيـــاة .
6 – من هنا نعلم .
7 – التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .
8 – عقيدة المسلم .
9 – خلق المسلم .
10 – فقه السيرة .
11 – فى موكب الدعوة .
12 – من معالم الحق .
13 – ليس من الإسلام .

تحت الطبع

1 – نظرات فى القرآن .

الثمن ١٢ قرشاً